الأنوار القدسية

في معرفة قواعد الصوفية

تأليف

الإمام العلامة عبد الوهاب الشعراني

٨٩٨هـ - ٩٧٣هـ

حققه وقدم له

طه عبد الباقي سرور   السيد محمد عيد الشافعي

الجزء الأول

المكتبة العلمية

بسم الله الرحمن الرحيم

ترجمة المصنف الإمام عبد الوهاب الشعراني

أسرة الشعراني:

إلى الدوحة العلوية الهاشمية يرتفع نسب الشعراني، فجده الأعلى هو محمد ابن الحنفية ابن علي بن أبي طالب رضي الله عنهما.

وقد هاجر أجداده إلى المغرب الأقصى في الموجات المهاجرة من البيت العلوي التي اختارت الأطراف النائية من الأمبراطورية الإسلامية، وفراراً من الملاحم المتتابعة بينهم وبين البيت الأموي تارة، والبيت العباسي تارة أخرى.

وكان الملك في مدينة تلمسان وما جاورها لقبيلة بني زغلة، وإلى تلك القبيلة ينتسب: عبد الوهاب الشعراني.

ولقد أرخ الشعراني لنفسه في كتابه ـ لطائف المنن ـ فلنستمع إليه وهو يحدثنا عن نفسه بأسلوبه الخاص به:

«.... أحمد الله تعالى حيث جعلني من أبناء الملوك[1] فإني بحمد الله تعالى عبد الوهاب بن أحمد بن علي بن أحمد بن علي بن محمد بن زوفاابن الشيخ موسى، المكني في بلاد البهنسا بأبي العمران، جدي السادس ابن السلطان أحمد، ابن السلطان سعيد، ابن السلطان فاشين، ابن السلطان محيا، ابن السلطان زوفا، ابن السلطان ريان، ابن السلطان محمد بن موسى، ابن السيد محمد ابن الحنفية، ابن الإمام علي بن أبي طالب رضي الله عنه.

وكان جدي السابع الذي هو السلطان أحمد[2] سلطاناً في مدينة تلمسان في عصر الشيخ

---

(١) لطائف المنن جـ ١ ص ٣٢.

(٢) هو أبو عبد الله أحمد الزغلي، سلطان تلمسان وما جاورها.

أبي مدين المغربي، ولما اجتمع به جدي موسى، قال الشيخ أبو مدين: لمن تنتسب؟ قال: والدي السلطان أحمد، فقال له: إنما عَنيتُ نسبك من جهة الشرف، فقال: أنتسب إلى السيد محمد ابن الحنفية، فقال: ملك، وشرف، وفقر - أي تصوف - لا يجتمعن، فقال: يا سيدي قد خلعت ما عدا الفقر. فرباه فلما كمل في الطريق، أمره بالسفر إلى صعيد مصر، وقال له: اسكن بناحية هو[1]، فإن بهاقبرك. فكان الأمر كما قال».

ولم يحدد لنا التاريخ السنة التي هاجر فيها موسى إلى مصر ولكن كتب التاريخ حددت لنا تاريخ وفاته، فقد توفي ببلدة «هو» عام ٧٠٧ هـ بعد أن نجحت دعوته، واهتدى بهديه الصوفي جمهور ضخم في الصعيد الأعلى.

واستمرت أسرة الشعراني بالصعيد حتى مطلع القرن التاسع الهجري، فهاجر عميدها أحمد إلى ساقية أبي شعرة بالمنوفية، وأسس بها زاوية للعلم والعبادة وانتقل إلى جوار ربه عام ٨٢٨ هـ.

مولده ونشأته:

ولد الشعراني على أصح الروايات وأشهرها في ٢٧ رمضان عام ٨٩٨ هـ ببلدة «قلقشنده» وهي قرية جده لأمه، ثم انتقل بعد أربعين يوماً من مولده إلى قرية أبيه، ساقية أبي شعرة، وإليها انتسب، فلقب بالشعراني، وعرف بهذا اللقب واشتهر به، وإن كان هو قد سمى نفسه في مؤلفاته بالشعراوي.

ولقد اضطرب رجال التاريخ في تحديد مولده، فقد ذكر صاحب «النور السافر» تاريخاً لمولده قبل هذا التاريخ بقليل، والمناوي وعلي مبارك، والمستشرق شاخت فقد أيدوا التاريخ الذي ذكرناه، وهو المعتمد.

واضطرب رجال التاريخ أيضاً في الحديث عن طفولته ونشأته، فذهب المستشرقان - كرويمر - و - نيكلسون - إلى أنه اشتغل في مطلع حياته بالنسيج[2].

ولكن المستشرق - فولرز - يسخر من هذا القول قائلاً: «إن حياة الشعراني كانت زاخرة دائماً بالعبادة، حافلة بالتعليم، فلم يكن من الميسور أن يجد وقتاً يحترف فيه عملاً».

والشعراني يقول في صراحة: إن من منن الله عليه «أنه لم تكن هناك عوائق تعيقني عن

---

(١) إحدى مدن مديرية قنا.

(٢) دائرة المعارف الإسلامية.

طلب العلم والعبادة منذ طفولتي، وكانت القناعة من الدنيا باليسير سداي ولحمتي، وهذه القناعة أغنتني عن الوقوع في الذل لأحد من أبناء الدنيا، ولم يقم لي أنني باشرت حرفة ولا وظيفة لها معلوم دنيوي، من منذ بلغت، ولم يزل الحق تعالى يرزقني من حيث لا أحتسب إلى وقتي هذا، وعرضوا علي الألف دينارٍ وأكثر، فرددتها ولم أقبل منها شيئاً، وكان التجار والكبراء يأتون بالذهب والفضة فأنثرهما في صحن جامع الغمري، فيلتقطه المجاورون»(1).

وحفظ الشعراني في قريته، كما يحدثنا في المنن، القرآن الكريم، ثم حفظ أبا شجاع، والأجرومية، ودرسهما على أخيه الشيخ عبد القادر.

وتوفي والداه قبل ان يبلغ العاشرة، فنشأ يتيماً من الأبوين، وكان الله وحده كما يقول، هو نصيره ووليه.

ويقص علينا الشعراني تاريخ حضوره الى القاهرة، بذلك الأسلوب القلبي الأخاذ الذي عرف عن الشعراني فيقول:

«.... وكان مجيئي الى القاهرة افتتاح سنة عشرة وتسعمائة، وعمري إذ ذاك اثنتا عشرة سنة، فأقمت في جامع سيدي أبو العباس الغمري، وحنن الله علي شيخ الجامع وأولاده فمكثت بينهم كأني واحد منهم، آكل ما يأكلون، وألبس ما يلبسون، فأقمت عندهم حتى حفظت متون الكتب الشرعية وآلاتها على الأشياخ».

ثم يقول: «ولم أزل بحمد الله محفوظ الظاهر من الوقوع في المعاصي معتقداً عند الناس، يعرضون عليّ كثيراً من الذهب والفضة والثياب، فتارة أردّها، وتارة أطرحها في صحن الجامع، فيلتقطها المجاورون».

ولبث الشعراني في مسجد الغمري، يعلم ويتعلم، ويتهجد ويتعبد، سبعة عشر عاماً، ثم انتقل إلى مدرسة أم خوند، وفي تلك المدرسة بزغ نجم الشعراني وتألق.

في الطريق إلى الله:

عاش الشعراني حياته تحت ظلال المساجد ليله ونهاره متبتلاً في طلب العلم عالماً في التعبد، عاش نقياً طاهراً مجاهداً في سبيل الكمال العلمي، والكمال الخلقي.

وقد اتصل منذ يومه الأول بالقاهرة بصفوة علمائها: جلال الدين السيوطي، وزكريا الأنصاري، وناصر الدين اللقاني، والرملي، والسمنودي وأضرابهم، وقد أفاض الشعراني في

(1) لطائف المنن.

ذكر أساتذته في كتبه، كما أفاض في ذكر إجلاله لهم، وحبهم له.

ودرس الشعراني على هؤلاء الأعلام الثقافة الإسلامية بشتى فنونها وعلومها، في الأصول والفقه والتصوف والحديث والتفسير والأدب واللغة، حتى غدا كما يقول: «لا يتصور أحد من معاصريه أحاط بما أحاط به علماً، أو تخلق بما تخلّق به عملاً».

ولكن هذه الدراسة لم ترض كل أشواق قلبه، ونداءات روحه، فكان يتطلع دائماً إلى سلوك الطريق المضيء، الطريق الصاعد إلى الله على أجنحة الحب والذوق، طريق التصوف، كما رسمه شيوخه، وكما تذوقه سالكوه.

ولقد كان الشعراني صوفياً في منهجه الذي أخذ نفسه به طوال حياته، يقول في المنن: «إن من منن الله عليّ أن ألهمني مجاهدة نفسي من غير شيخ منذ طفولتي».

ولكن الشعراني كان ينشد الشيخ الذائق الواصل صاحب البصيرة والإلهام ليساعده كما يقول على اختصار الطريق، وعلى إزالة عقبات النفس الخفية.

وأخذ الشعراني يتصل بشيوخ التصوف يلتمس عندهم المفاتيح والأبواب كما يقول، فلم يجد عند أحد منهم أمله.

يقول الشعراني: «ولقد اجتمعت بخلائق لا تحصى من أهل الطريق ألتمس لديهم المفاتيح والأبواب، فلم يكن لي وديعة عند أحد منهم».

الشعراني والخواص:

ثم تأذن الله له بالفتح فجمع بينه وبين الخوّاص، فكان الخوّاص معراجه وسلمه الذي صعد عليه إلى أبواب الفتح، وسموات المنح، ومناطق النور والإلهام.

وصلة الخواص بالشعراني، هي آية الآيات على مكانة الشيخ في الطريق، وهي الآية الكبرى على مقام العلم اللّدنيّ، فلقد كان الخوّاص أمياً، وكان الشعراني عالماً، ذلك هو حكم الظاهر، أما حكم الباطن، فلقد كان الخواص عالماً، وكان الشعراني أمياً!!

والشعراني يقول: «إن من منن الله عليه، أن كان وصوله وفتحه على يد أمي لا يعرف القراءة والكتابة» ويقول في وصف هذا الأمي:

«رجل غلب عليه الخفاء فلا يكاد يعرفه بالولاية والعلم إلا العلماء العاملون لأنه رجل كامل عندنا بلا شك، والكامل إذا بلغ مقام الكمال في العرفان، صار غريباً في الأكوان».

ويحدثنا الشعراني بحديثه الروحي العذب عن وصوله إلى معارج المعارف العلوية على

يد شيخه، وعن بحار علوم شيخه فيقول:

«وكانت مجاهداتي على يد سيدي علي الخوّاص كثيرة ومنوعة، منها أنـه أمرني أول اجتماعي عليه ببيع جميع كتبي والتصدق بثمنها على الفقراء ففعلت! وكانت كتباً نفيسة مما يساوي عادة ثمناً كثيراً فبعتها وتصدقت بثمنها، فصار عندي التفات إليها لكثرة تعبي فيها وكتابة الحواشي والتعليقات عليها، حتى صرت كأنني سلبت العلم، فقال لي: اعمـل على قطع التفاتك إليها بكثرة ذكر الله عز وجل، فإنهم قالوا: متلفت لا يصل، فعملت على قطع الالتفات إليها، حتى خلصت بحمد الله من ذلك.

ثم أمرني بالعزلة عن الناس مدة حتى صفا وقتي، وكنت أهرب من الناس وأرى نفسي خيراً منهم، فقال لي: اعمل على قطع أنك خير منهم، فجاهدت نفسي حتى صـرت أرى أرذلهم خيراً مني.

ثم أمرني بالاختلاط بهم والصبر على أذاهم وعدم مقابلتهم بالمثل، فعملت على ذلك حتى قطعته، فرأيت نفسي حينئذ أنني صرت أفضل مقاماً منهم، فقال لي: اعمل على قطع ذلك، فعملت حتى قطعته.

ثم أمرني بالاشتغال بذكر الله سراً وعلانية، والانقطاع بالكلية إليه، وكل خاطر خطر لي مما سوى الله عز وجل صرفته عن خاطري فوراً فمكثت على ذلك عدة أشهر».

ويفيض الشعراني في الحديث عن المجاهدات التي أخذه شيخه بها، وعن الفتح الذي ظفر به على يديه، وعن بحار علوم شيخه، وعن اغترافه من هذه البحار الزاخرات.

وبهذا كله أصبح الشعراني إمام عصره علماً وذوقاً، وغدا الشعراني قطباً تدور حـوله الأحداث.

مكانة الشعراني:

أصبحت زاويـة الشعراني التي أسسهـا ليتلقى فيها الطلاب علوم الظاهـر مع أذواق الباطن، من أعظم منارات العلم والثقافة والتوجيه في العالم الإسلامي في ذلك الوقت.

وغدت مثابة للعلماء والأدباء، ومنبراً للدعوة والإرشاد، وساحة للذكر والعبادة، ورواقاً يرسل الشعاع الروحي النقي في عصر انطفأت فيه المصابيح، وخمدت مشاعل الحياة.

وأصبح الشعراني قطب الرحى في عصره، يلوذ به طلاب العلم، وطلاب الذوق، كما يلجأ إليه أصحاب الحاجات والشفاعات، وعلى باب الزاوية يزدحم الأمراء والكبراء.

واعتصم الشعراني بخلقه وبدينه وبعزة نفسه في عصر حطم فيه ولاة الترك كل إباء، وكل عزة.

يقول الوزير الأعظم علي باشا، عندما عزم على الرحيل إلى تركيا: «إننا مقربون إلى الخليفة، فهل لك حاجة عنده نرفعها إليه؟ فيقول الشعراني في عزة المؤمن، وإباء الصوفي: ألك حاجة عند الله، إننا مقربون إلى حضرته».

ويقول الشعراني: «تشفعت عند السلطان الغوري، والسلطان طومان باي، وخابر بك، وغيرهم من بشاوات مصر، فقبلوا شفاعتي وذلك معدود من جملة طاعة الملوك لي[1]».

ويقول: «ومِمَّا منَّ الله به عليَّ كثرة قبول شفاعتي عند الأمراء ولا أعلم الآن أحداً في مصر أكثر مني شفاعة عند الولاة، فربما يفنى الدست الورق في مراسلاتهم في حوائج الناس في أقل من شهر».

وأصبح الشعراني المدافع الأول عن الشعب في وجه الطغاة من الولاة، لأنه كان فوق المادة، وفوق الرهبة، وفوق كل إغراء، وقد امتحنوه سراً وجهراً فأرسلوا إليه الأموال والخيرات فردها عليهم، وعرضوا عليه الوظائف والهبات، فأبى أن يأخذ مالاً من حاكم، أو حتى أن يأكل من طعامه، لأن في ذلك ما يخدش عقيدته، وما يخدش رسالته.

خلق الشعراني:

تخلق الشعراني بخلق التصوف وتأدب بأدبه وأخذ نفسه بكل ما كتب وسطر في كتبه، فكان خلقه صورة رسالته.

وكان بحسه وبوجدانه صورة للمثاليات، وعنواناً كريماً للانسانية في كل أفق من آفاقها.

كان الشعراني يرى أن الإنسان لا يكون إنساناً إلا إذا شارك الناس كافة في أحزانهم وآلامهم لأن الإنسانية وحدة متماسكة خيرها مشترك، وعذابها مشترك، يقول:

«من ضحك، أو استمتع بزوجه، أو لبس مبخَّراً، أو ذهب إلى مواضع المتنزَّهات أيام نزول البلاء على المسلمين فهو والبهائم سواء».

وكان رحيماً بالناس، ورحيماً بنوع خاص بالعصاة والمذنبين، لأنهم أشد الناس ضعفاً، وأحوجهم إلى العطف والنصح والرحمة.

---

(١) المنن جـ ٢ ص ٢٣٦.

يقول متحدثاً عن مبادئه: «ثم ستري لعورات الناس وعيوبهم، ورحمتي بالعصاة حال تلبسهم بالمعصية، فإنهم أشقى الناس حينئذ».

ثم يقول واصفاً خلقه: «ثم غيرتي على أذني أن تسمع زوراً، وعيني أن تنظر محرماً، ولساني أن يتكلم باطلاً».

وكان الشعراني يرى أن العبادة لا تصلح إلا بصلاح القلب ونقاء الأخلاق، فكان لا يقوم إلى الصلاة إلا إذا فتش قلبه، هل فيه غل أو حقد، أو حسد، أو نميمة، أو شهوة صغيرة أو كبيرة، بل كان يستحي ان ينام وفي قلبه شيء من هذا لأن النوم رحلة الروح إلى الملأ الأعلى.

ويسمو الشعراني في أدب النفس، ويرتفع في معارج الأخلاق، فيقول: «ومما أنعم الله به عليَّ عدم خروجي من بيتي، إلا إذا علمت من نفسي القدرة بإذن الله على هذه الثلاث خصال: تحمل الأذى عن الناس، وتحمل الأذى منهم، وجلب الراحة لهم».

علوم الشعراني وكتبه:

جال قلم الشعراني في كل أفق من آفاق المعرفة العلمية والذوقية، فكتب في التصوف، والفقه، والأصول، والتفسير، والحديث، والنحو، والطب، والكيمياء، والأخلاق، وغيرها من ألوان العلوم والمعارف.

وقد استغرق بعض كتبه خمسة مجلدات، ووقع الكثير منها في مجلدين، وأكثر هذه المؤلفات لا يزال محفوظاً وموزعاً على دور الكتب في أرجاء العالم.

وقد أحصى المستشرق «بروكلمان» أكثر من ستين كتاباً محفوظاً متناثرة في دور العلم العالمية، ويذكر علي مبارك باشا أن الكتب التي رآها للشعراني أكثر من سبعين كتاباً.

يقول المستشرق فولرز: «إن الشعراني كان من الناحية العلمية والنظرية صوفياً من الطراز الأول، وكان في الوقت نفسه كاتباً بارزاً أصيلاً في ميدان الفقه وأصوله، وكان مصلحاً يكاد الإسلام لا يعرف له نظيراً، وإن كتبه التي تجاوزت السبعين عدّاً من بينها أربعة وعشرين كتاباً تعتبر ابتكاراً محضاً أصيلاً لم يسبق إليه أبداً».

ويقول العلامة ماكدونالد: «إن الشعراني كان رجلاً دراكاً نفاذاً مخلصاً واسع العقل، وهو رجل أخلاق تهزه أنفة عالية».

ويقول المستشرق نيكلسون: «كان مفكراً مبدعاً أصيلاً، أثر تأثيراً واسع المدى في العالم الإسلامي، يشهد به إلى يومنا إلحاح القراء إلحاحاً متواصلاً في طلب مؤلفاته».

هذا الكتاب

يعتبر كتاب «الأنوار القدسية في معرفة قواعد الصوفية» من أجلّ ما كتب الشعراني، ومن أدق ما انفرج قلمه، فهو يمثل الذروة الذوقية التي وصل إليها، والقيمة العلمية التي ارتقاها، فقد كتبه في أواخر حياته، فجاء صورة كاملة لمجاهداته وأذواقه وعلومه.

وقد وضع الشعراني هذا الكتاب، بعد كتابه «الأنوار القدسية في بيان العهود المحمدية» ليكون الدستور الكامل لسالك الطريق إلى الله، والمنهج الأعلى لرواد الكمالات الإيمانية.

فهو بحق كتاب التربية الصوفية، الذي رسم في دقة فنية آداب الطريق وواجباته ومندوباته وأسراره وأذواقه ومثله، وعقباته ومزالقه ومعارجه وفتوحاته.

والكتاب فوق هذا كله معرض وأفق لآراء كبار رجال التربية الصوفية، فقد حشد فيه الشعراني مجموعة طيبة كريمة من أقوال الأئمة الأعلام: السيد إبراهيم الدسوقي، والسيد علي وفا، والسيد المرسي، والسيد الشناوي، والسيد الأقصري، والسيد الكتاني، والسيد علي المرصفي.

فحفظ بذلك زبدة عالية من أقوال هؤلاء الأقطاب الذين تحققوا بالتصوُّف ذوقاً وسلوكاً.

نسأل الله أن يمدنا دائماً بتوفيقه وهداه حتى نواصل رسالتنا في نشر التراث الصوفي العالي، إنه سبحانه ولي التوفيق.

طه عبد الباقي سرور   السيد محمد عيد الشافعي

مقــدمة

بسم الله الرحمن الرحيم وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم، الحمد لله ربِّ العالمين، وأشهد أن لا إله إلا الله الملك الحق المبين، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله سيد المتأدبين، وسيد السالكين، اللهم فصل وسلم عليه وعلى سائر الأنبياء والمرسلين، وعلى آلهم وصحبهم أجمعين. وبعد:

فهذه رسالة عظيمة لم ينسج أحد فيما أظن على منوالها ولا نصح نفسه وإخوانه بمثالها، سميتها: رسالة الأنوار القدسية في بيان قواعد الصوفية. ورتبتها على مقدمة وثلاثة أبواب وخاتمة. فالمقدمة في بيان عقيدة القوم[1] وبيان سندهم بتلقين الذكر وإلباس الخرقة وآداب الذكر.

والباب الأول في ذكر نبذة في آداب المريد في نفسه، والباب الثاني في ذكر نبذة من آداب المريد مع شيخه والباب الثالث في ذكر نبذة من آداب المريد مع إخوانه وأصحاب شيخه، والخاتمة في بيان آداب لا تختص بالشيخ والمريد بل هي عامة مع جميع الخلق.

وقد ضمنت كل باب ما تقر به أعين الناظرين من قول السلف والخلف إلى عصرنا هذا، فأكرم بها من رسالة كلها نصح وأدب لا أظن أن فيها كلمة واحدة يرمى بها، وأعيذها بالله تعالى من شر كل عدو أو حاسد يدس فيها ما ليس من كلامي لينفر الناس من مطالعتها، كما وقع لي ذلك في كتاب «العهود» وفي مقدمة كتاب «كشف الغمة عن جميع الأمة» فإن بعض الحسدة لما رأى إقبال الناس على هذين الكتابين غار من ذلك فاستعار له نسخة من كل كتاب ودس فيها ما ليس من كلامي وسلكه في غضونها حتى كأنه المؤلف، ثم أعطى ذلك لبعض المتهورين في دينهم وقال: أطلع العلماء على هذا الكلام المخالف لظاهر الشريعة الذي ألفه فلان! فلا يعلم عدد من استغابني إلا الله تعالى، مع أني بحمد الله سنيّ محمديّ، وما ألفت شيئاً من الكتب إلا

---

(١) الصوفية.

بعد تبحري في علوم الشريعة واطلاعي على مذاهب المجتهدين وأدلتهم، فكيف أخالفهم! وأعرف بعض جماعة يظنون أنني أعتقد ما دسوه في كتبي من العقائد الزائفة إلى وقتي هذا، وما منهم أحد يجالسني قط، فالله يغفر لهم أجمعين، فإياك أن تصغي لقولهم فإني بريء من جميع ما دسوه، وبيني وبينهم يوم القيامة.

وكان من الباعث لي على تأليف هذه الرسالة طلب النصح لنفسي ولإخواني حيث تحلسنا[1] بحلاس الأشياخ ومشينا على مراسمهم الظاهرة، وظن كل واحد منا نفسه أنه صار من أشياخ الطريق، فوضعت هذه الرسالة كالميزان التي يوزن بها المحق والمبطل، فمن وافق حاله ما فيها فليحمد الله، وإلا فليستغفر من دعاويه الكاذبة.

وقد بلغنا أن الذئب الذي اتهم بأنه أكل يوسف عليه الصلاة والسلام، كان من حلفه أنه قال: «وإلا أكون من مشايخ القرن العاشر من أمة محمد ﷺ ما أكلت يوسف» فكيف يصح لأحدنا دعوى الطريق وهو في النصف الثاني من القرن العاشر الذي استعاذ الذئب أن يكون واحداً من أشباهنا فيه!!؟

وقد أدركنا بحمد الله جملة من أشياخ الطريق أول هذا القرن، وكانوا على قدم عظيم في العبادة والنسك والورع والخشية وكف الجوارح الظاهرة والباطنة عن الآثام حتى لا تجد أحدهم قط يعمل شيئاً يكتبه كاتب الشمال، وكان للطريق حرمة وهيبة، وكان الأمراء والملوك يتبركون بأهلها، ويقبلون بطون أقدامهم، لما يشهدونه من صفاتهم الحسنة، فلما ذهبوا زالت حرمة الطريق وأهلها، وصار الناس يسخرون بأحدهم ويقولون لبعضهم: ما دريتم ما جرى؟ فلان الآخر عمل شيخاً!!؟ كأنهم لا يسلمون له ما يدعيه لما هو عليه من محبة الدنيا وشهواتها والتلذذ بمطاعمها وملابسها ومناكحها والسعي على تحصيلها، حتى إني قلت لبعض التجار لم لا تجتمع بالشيخ الفلاني؟ فقال: إن كان شيخاً فأنا الآخر شيخ، فإنه يحب الدنيا كما أحبها، ويسعى في تحصيلها كما أسعى، بل هو أشد مني سعياً على الدنيا، لأنه يسافر إلى الروم[2] في طلبها وأنا لم أسافر، وربما أكل الدنيا بصلاحه، وأنا لم آكلها بصلاحي، فأنا أحسن حالاً منه. فأردت أن أجيب عنه فرأيت الحس يكذبني.

وقد رأيت بعيني السلطان الغوري، وهو يقبل يد سيدي محمد بن عنان، ورأيت السلطان طومان باي الذي تولى بعده يقبل بطن رجله. وطلعت مرة مع سيدي الشيخ أبي

---

(١) لبسنا.

(٢) بلاد الروم.

الحسن الغمري للسلطان الغوري في شفاعة، فقام للشيخ وعضده من تحت إبطه وقال: يا سيدي عزرتني في هذا النهار، فإني ومملكتي كلها لا نفي حق طريقك.

وكان آخر الأشياخ الذين أدركناهم، سيدي الشيخ علي المرصفي رضي الله عنه، فلما توفي في جمادى الأول سنة ثلاثين وتسعماية، انحل نظام الطريق في مصر وقراها، وجلس كثير للمشيخة بأنفسهم من غير إذن من أشياخهم، فلا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم.

واعلم يا أخي أن جميع ما ذكرته لك في هذه الرسالة من أخلاق المريدين، إنما هو كالقطرة من البحر، فليعرض كل من نظر فيها أحواله على ما ذكرته من الآداب فيها، فإن وجد نفسه متخلقاً بها فليحمد الله تعالى، وإن وجد نفسه عارياً عنها، فليأخذ في أسباب التخلق بالسلوك على يد شيخ ناصح.

وإن كان قد جلس للمشيخة فليعزل نفسه منها نصيحة لنفسه ولإخوانه، فإن من جلس للمشيخة بغير إذن من شيخه ضل وأضل، وإنما لم نذكر شيئاً من أخلاق الكُمّل في هذه الرسالة لعزة وجودها وعزة المتخلق بها، فلذلك ذكرنا أخلاق المريدين فقط لأنها هي الطريق المسلوكة الآن، وهيهات أن يصل أحدنا الآن إلى مقام مريد، فالحمد لله رب العالمين، ولنشرع في مقدمة الرسالة؛ فأقول وبالله التوفيق:

مقدمة: تشتمل على جملة من عقائد القوم وبيان موافقتها لعقائد أهل السنة والجماعة وعلى بيان سند القوم في تلقينهم الذكر وعلى سندهم في إلباسهم الخرقة للمريد وعلى بيان جملة من آداب الذكر.

اعلم يا أخي أن القوم أجمعوا على أن الله تعالى إله واحد لا ثاني له، منزه عن الصاحبة والولد، مالك لا شريك له، صانع لا مدبر معه، موجود بذاته من غير افتقار إلى موجد يوجده. بل كل موجود مفتقر إليه في وجوده، فالعالم كله موجود به، وهو تعالى موجود بذاته، لا افتتاح لوجوده، ولا نهاية لبقائه، بل وجوده مطلق مستمر قائم بنفسه، ليس بجوهر فيقدر له المكان، ولا بعرض فيستحيل عليه البقاء، ولا بجسم فتكون له الجهة والتلقاء، مقدس عن الجهة والأقطار، مرئيّ بالقلوب والأبصار، استوى تعالى على عرشه كما قاله، وعلى المعنى الذي أراده، كما أن العرش وما حواه به استوى له الآخرة والأولى، ليس له مثل معقول، ولا دلت عليه العقول، لا يحده زمان، ولا يقله مكان، هو الآن على ما عليه كان، خلق المتمكن والمكان، وأنشأ الزمان، وقال: أنا الواحد الحي الذي لا يؤوده حفظ المخلوقات ولا يرجع إليه صفة لم يكن عليها من صفة المصنوعات، تعالى أن تحله الحوادث أو يحلها، أو تكون قبله أو يكون

قبلها، بل يقال: كان ولا شيء معه، لأن القبل والبعد من صيغ الزمان الذي أبدعه، فلا نطلق عليه تعالى ما لم يطلقه على نفسه فإنه أطلق على نفسه: الأول والآخر، لا القبل والبعد.

فهو القيوم الذي لا ينام، والقهار الذي لا يرام، ليس كمثله شيء وهو السميع البصير، خلق العرش وجعله حد الاستواء، وأنشأ الكرسي وأوسعه الأرض والسماء، اخترع اللوح والقلم الأعلى، وأجراه كاتباً في خلقه إلى يوم الفصل والقضاء، أبدع العالم كله على غير مثال سبق، وخلق الخلق، وخلق ما خلق.

أنزل الأرواح في الأشباح أمناً، وجعل هذه الأشباح المنزلة إليها الأرواح في الأرض خلفاً، وسخر لها ما في السموات وما في الأرض جميعاً منه، فلا تتحرك ذرة إلا عنه، خلق الكل من غير حاجة إليه ولا موجب أوجب ذلك عليه، لكن علمه بذلك سبق، فلا بد أن يخلق ما خلق.

فهو الأول والآخر والظاهر والباطن وهو على كل شيء قدير، أحاط بكل شيء علماً، وأحصى كل شيء عدداً، يعلم السرّ وأخفى، يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور، كيف لا يعلم شيئاً خلقه، ﴿ألا يعلم من خلق وهو اللطيف الخبير﴾، علم الأشياء قبل وجودها ثم أوجدها على حد ما علمها، فلم يزل عالماً بالأشياء لم يتجدد له علم عند تجدد الأشياء بعلمه، أتقن الأشياء وأحكمها، يعلم الكليات والجزئيات على الإطلاق فهو عالم الغيب والشهادة فتعالى عما يشركون، فعال لما يريد، فهو المريد للكائنات في عالم الأرض والسموات لم تتعلق قدرته تعالى بإيجاد شيء حتى أراده، كما أنه لم يرده سبحانه حتى علمه، اذ يستحيل أن يريد سبحانه وتعالى ما لم يعلم، أو يفعل المختار المتمكن من ذلك الفعل ما لا يريده كما يستحيل أن توجد هذه الحقائق من غير حيّ، كما يستحيل أن تقوم هذه الصفات بغير ذات موصوفة بها.

فما في الوجود طاعة ولا عصيان، ولا ربح ولا خسران، ولا عبد ولا حر، ولا برد ولا حر، ولا حياة ولا موت، ولا حصول ولا فوت، ولا نهار ولا ليل، ولا اعتدال ولا ميل، ولا بر ولا بحر، ولا شفع ولا وتر، ولا جوهر ولا عرض، ولا صحة ولا مرض، ولا فرح ولا ترح، ولا روح ولا شبح، ولا ظلمة ولا ضياء، ولا أرض ولا سماء، ولا تركيب ولا تحليل، ولا كثير ولا قليل، ولا غداة ولا أصيل، ولا بياض ولا سواد، ولا سهاد ولا رقاد، ولا ظاهر ولا باطن، ولا متحرك ولا ساكن، ولا يابس ولا رطب، ولا قشر ولا لب، ولا شيء من جميع المتضادات والمختلفات والمتماثلات، إلا وهو مراد للحق تعالى وكيف لا يكون مراداً له وهو أوجده فكيف يوجد المختار ما لا يريد، لا راد لأمره، ولا معقب لحكمه، يؤتي الملك من يشاء وينزع الملك ممن يشاء، ويعز من يشاء، ويذل من يشاء، ويضلّ من يشاء، ويهدي من يشاء، ما شاء الله كان، وما لم يشأ لم يكن.

لو اجتمع الخلائق كلهم على أن يريدوا شيئاً لم يرد الله تعالى لهم أن يريدوه ما أرادوه، أو أن يفعلوا شيئاً لم يرد الله إيجاده وأرادوه ما فعلوه ولا استطاعوه ولا أقدرهم عليه، فالكفر والإيمان والطاعة والعصيان من مشيئته وحكمته وإرادته، ولم يزل سبحانه وتعالى موصوفاً بهذه الإرادة أزلاً والعالم معدوم، ثم أوجد العالم من غير تفكر ولا تدبير، بل أوجده عن العلم السابق، وتعيين الإرادة المنزهة الأزلية القاضية على العالم بما أوجدته عليه من زمان ومكان وأكوان وألوان، فلا مريد في الوجود على الحقيقة سواه، إذ هو القائل سبحانه: «وما تشاءون إلا أن يشاء الله» وإنه تعالى كما علم ما حكم وأراد فخص وقدر فأوجد، كذلك سمع ورأى ما تحرك وسكن، أو نطق في الورى، من العالم الأسفل والأعلى، لا يحجب سمعه البعد، فهو القريب، ولا يحجب بصره القرب، فهو البعيد، يسمع كلام النفس في النفس، وصوت المماسة الخفية عند اللمس يرى السواد في الظلماء، والماء في الماء، لا يحجبه الامتزاج، ولا الظلمات، ولا النور، وهو السميع البصير.

تكلم سبحانه، لا عن صمت متقدم ولا سكوت متوهم بكلام قديم أزلي كسائر صفاته من علمه وإرادته وقدرته، كلم به موسى عليه الصلاة والسلام سماه التنزيل والزبور والتوراة والإنجيل والفرقان، من غير تشبيه ولا تكييف، إذ كلامه تعالى من غير لهاة ولا لسان، كما أن سمعه من غير أصمخة ولا أجفان، كما أن إرادته من غير قلب ولا جنان، كما أن علمه من غير اضطرار ولا نظر في برهان، كما أن حياته من غير بخار تجويف قلب حدث عن امتزاج الأركان، كما أن ذاته لا تقبل الزيادة ولا النقصان.

فسبحانه سبحانه من بعيد دان، عظيم السلطان عميم الإحسان، جسيم الامتنان، كل ما سواه فهو عن وجوده فائض، وفضله وعدله الباسط والقابض، أكمل صنع العالم وأبدعه حين أوجده واخترعه، لا شريك له في ملكه ولا مدبر معه فيه، إن أنعم فنعّم فذلك فضله، وإن أبلى فعذب فذلك عدله، لم يتصرف في ملك غيره فينسب إلى الجور والحيف، ولا يتوجه عليه لسواه حكم فيتصف بالجزع لذلك والخوف. كل ما سواه فهو تحت سلطان قهره ، ومتصرف عن إرادته وأمره، فهو الملهم نفوس المكلفين للتقوى والفجور، أي لتعمل بالتقوى وتجتنب الفجور، فهو المتجاوز عن سيئات من شاء هنا وفي يوم النشور، لا يحكم عدله في فضله ولا فضله في عدله، لقدم صفاته كلها، وتنزهها عن الحدوث.

أخرج العالم قبضتين، وأوجد لهم منزلتين، فقال: هؤلاء للجنة ولا أبالي وهؤلاء للنار ولا أبالي، ولم يعترض عليه معترض هناك إذ لا موجود كان ثمَّ سواه، فالكل تحت تصريف أسمائه، فقبضة تحت أسماء بلائه وقبضة تحت أسماء آلائه، لو أراد سبحانه أن يكون العالم كله سعيداً لكان، أو شقياً لما كان في ذلك من شان، لكنه سبحانه لم يرد ذلك فكان كما أراد

فمنهم الشقي والسعيد، هنا وفي يوم الميعاد، فلا سبيل إلى تبدل ما حكم عليه القديم وقد قال تعالى في حديث فرض الصلاة: «هي خمس وهي خمسون، ما يبدل القول لديّ وما أنا بظلام للعبيد لتصرفي في ملكي وإنفاذ مشيئتي في ملكي».

وذلك لحقيقة عميت عنها البصائر ولم تعبر عليها الأفكار ولا الضمائر إلا بوهب إلهي، وجود رحماني، لمن اعتنى الله به من عباده، وسبق له ذلك في حضرة إشهاده، فعلم حين أعلم أن الألوهية أعطت هذا التقسيم وأنها من دقائق القديم، فسبحان من لا فاعل سواه، ولا موجود بذاته إلا إياه، والله «خلقكم وما تعلمون» «ولا يسأل عما يفعل وهم يسألون» «قل فلله الحجة البالغة فلو شاء لهداكم أجمعين».

وكما شهدنا لله تعالى بالوحدانية وما يستحقه من الصفات العليّة، كذلك نشهد لسيدنا ومولانا محمد ﷺ بالرسالة إلى جميع الناس كافة بشيراً ونذيراً وداعياً إلى الله بإذنه وسراجاً منيراً، وأنه ﷺ، بلغ جميع ما أنزل إليه من ربه وأدى أمانته، ونصح أمته، وقد ثبت أنه ﷺ، وقف في حجة الوداع، على كل من حضره من الأتباع، فخطب وذكر، وخوف وأنذر، ووعد وأوعد، وأمطر وأرعد، وما خص بذلك التذكير أحداً دون أحد عن إذن الواحد الصمد، ثم قال: ألا هل بلغت؟ فقالوا جميعاً: قد بلغت يا رسول الله، فقال ﷺ: اللهم اشهد!.

ونؤمن بكل ما جاء به رسول الله ﷺ، مما علمنا ومما لم نعلم، فمما علمنا وتحققنا مما جاء به وقرر، أن الموت عن أجل مسمى عند الله إذا جاء لا يؤخر فنحن مؤمنون بهذا إيماناً لا ريب فيه ولا شك كما آمنا وأقررنا وصدقنا أن سؤال منكر ونكير في القبر حق، وأن عذاب القبر حق، والبعث من القبور حق، والعرض على الله تعالى حق، والحوض حق، والميزان حق، وتطاير الصحف حق، والصراط حق، والجنة والنار حق، وفريقاً في الجنة وفريقاً في السعير حق، وأن كرب ذلك اليوم على طائفة حق، وطائفة أخرى لا يحزنهم الفزع الأكبر حق، وأن شفاعة الأنبياء والملائكة وصالحي المؤمنين حق، وشفاعة أرحم الراحمين حق، فتشفع أسماء الحنان والرحمة، عند أسماء الجبروت والنقمة.

وكذلك نؤمن بأن إيمان أهل النار كفرعون وغيره غير مقبول ولا نافع، وأن جماعة من أهل الكبائر من الموحدين يدخلون جهنم ثم يخرجون بالشفاعة حق، وأن كل ما جاءت به الكتب والرسل من عند الله تعالى، عُلمَ أو جُهلَ، حق. وكذلك نؤمن بأن التأبيد للمؤمنين في النعيم المقيم حقّ، والتؤبيد للكافرين والمنافقين والمشركين والمجرمين [في الجحيم] حق. فهذه عقيدة القوم رضي الله عنهم أجمعين، وعقيدة عليها حيينا وعليها نموت، كما هو رجاؤنا في الله عز وجل، فنسأل الله من فضله أن ينفعنا بهذا الإيمان ويثبتنا عليه عند الانتقال إلى الدار الحيوان، ويحلنا دار الكرامة والرضوان، ويحول بيننا وبين دار سرابيل أهلها القطران، ويجعلنا من

العصابة التي تأخذ كتبها بالأيمان، وممن ينقلب من الحوض وهو ريان، ويرجح له الميزان، ويثبت منه على الصراط القدمان، إنه المنعم المحسان آمين اللهم آمين.

فأمعن يا أخي النظر في هذه العقيدة فإنها عظيمة، وإن حفظتها عن ظهر قلب كان أولى، والله يتولى هداك.

سند التلقين الصوفي

وأما بيان مستند القوم في تلقينهم كلمة: لا إله إلا الله، للمريدين، وبيان ما قاله الأشياخ في آداب الذكر، وبيان عزة التلقين، وبيان فوائد تتعلق بالذكر، فاعلم رحمك الله: أنه ورد تلقين رسول الله ﷺ لأصحابه كلمة «لا إله إلا الله» جماعة وفرادى وتسلسلت السلسلة من كل منها لجماعة، مع اتصال سندهم.

فروى الإمام أحمد والبزار والطبراني وغيرهم بإسناد حسن أن رسول الله ﷺ كان يوماً مجتمعاً مع أصحابه فقال: هل فيكم غريب؟ يعني أهل الكتاب، قالوا: لا يا رسول الله، فأمر بغلق الباب، وقال: ارفعوا أيديكم وقولوا لا إله إلا الله.

قال شداد بن أوس: فرفعنا أيدينا ساعة وقلنا: لا إله إلا الله، ثم قال رسول الله ﷺ: اللهم إنك بعثتني بهذه الكلمة وأمرتني بها، ووعدتني عليها الجنة، وإنك لا تخلف الميعاد، ثم قال رسول الله ﷺ: ألا أبشروا فإن الله تعالى قد غفر لكم.

فهذا دليل الأشياخ في تلقينهم الذكر لجماعة معاً، وأما دليل تلقينهم الذكر فرادى، فلم أره في شيء من كتب المحدثين التي اطلعت عليها ولكن روى سيدي يوسف العجمي شيخ السلسلة في رسالته بسنده المتصل عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه، قال: قلت يا رسول الله، دلني على أقرب الطرق إلى الله عز وجل وأسهلها على العباد، وأفضلها عند الله تعالى، فقال رسول الله ﷺ: «يا علي، عليك بمداومة ذكر الله عز وجل، سراً وجهراً» فقال علي رضي الله عنه: كل الناس ذاكرون يا رسول الله، وإنما أريد أن تخصني بشيء، فقال رسول الله ﷺ: «مه يا علي، أفضل ما قلت أنا والنبيون من قبلي: لا إله إلا الله، ولو أن السمٰوات السبع، والأرضين السبع، في كفة ولا إله إلا الله في كفة، لرجحت لا إله إلا الله». قلت:

ويشهد لهذا الحديث ما رواه ابن حبان والحاكم وغيره مرفوعاً، أن موسى عليه الصلاة والسلام قال: «يا رب علمني شيئاً أذكرك به وأدعوك به، قال: يا موسى قل لا إله إلا الله، قال: يا رب كل عبادك يقولون هذا، قال: قل: لا إله إلا الله، قال: يا رب إنما أريد شيئاً تخصني به،

قال: يا موسى لو أن السموات السبع والأرضين السبع في كفة ولا إله إلا الله في كفة، مالت بهم لا إله إلا الله».

وهو نظير سؤال علي لرسول الله ﷺ على حد سواء وفي الحديث أن رسول الله ﷺ قال: «يا علي لا تقوم الساعة وعلى وجه الأرض من يقول الله» قال سيدي يوسف: ثم إن علياً رضي الله عنه طلب التلقين من رسول الله ﷺ فقال: كيف أذكر؟ فقال رسول الله ﷺ: أغمض عينيك واسمع مني ثلاث مرات، ثم قل أنت: لا إله إلا الله ثلاث مرات، وأنا أسمع. فقال رسول الله ﷺ ثلاث مرات لا إله إلا الله مغمضاً عينيه رافعاً صوته وعلي رضي الله عنه يسمع، ثم قال علي رضي الله عنه: لا إله إلا الله، ثلاث مرات مغمضاً عينيه رافعاً صوته والنبي ﷺ يسمع.

قلت: ولم أجد هذه الكيفية التي علمها رسول الله ﷺ لعلي رضي الله عنه في شيء من الأصول، والله أعلم.

قال سيدي يوسف العجمي رحمه الله: وإنما أمر ﷺ بغلق الباب لما أراد أن يلقن جماعة من أصحابه كما تقدم وقال: هل فيكم غريب؟ يعني أهل الكتاب، لينبه إلى أن طريق القوم مبنية على الستر، بخلاف الشريعة المطهرة فلا ينبغي لأحد من أهل الطريق أن يتكلم بالحقيقة عند من لا يؤمن بها، خوفاً من أن ينكرها فيمقت!!

قلت: ومن هنا أنكر بعض المحدثين كون الحسن البصري تلقن كلمة لا إله إلا الله من علي بن أبي طالب رضي الله عنه، لعزة ثبوت ذلك من طريق مشهورة، بل أنكر بعضهم اجتماع الحسن البصري بعلي بن أبي طالب رضي الله عنه، فضلاً عن أخذه عنه الطريق، والحق أنه اجتمع به ولقنه الذكر وألبسه الخرقة.

وروى الحافظ ابن حجر وتلميذه الحافظ جلال الدين السيوطي رحمهما الله تعالى، وقالا إن إسناده صحيح ورجاله ثقات: أن الحسن البصري كان يقول سمعت علياً رضي الله عنه يقول: قال رسول الله ﷺ: «أمتي كالمطر لا يدرى أوله خير أم آخره» وفي رواية أخرى عن الحسن البصري قال: سمعت علياً بالمدينة وقد سمع صوتاً فقال: ما هذا؟ فقالوا: قتل عثمان ابن عفان!! فقال: «اللهم إني أشهدك أني لم أرض ولم أبالِ» وفي مسند الحافظ ابن مبدي عن الحسن البصري قال: «صافحت علي بن أبي طالب رضي الله عنه» قال الجلال السيوطي رحمه الله: «فقد ثبت عندي وعند جماعة من الحفاظ ثبوت رواية الحسن عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه».

قال الجلال السيوطي: وكذلك هي عبارة شيخنا الحافظ ابن حجر قال: ويؤيد هذا

وجوه، الأول أن المثبت مقدم على النافي، الثاني أن الحافظ ذكر أن الحسن البصري كان يصلي خلف عثمان بن عفان رضي الله عنه، فلما قتل كان يصلي خلف علي رضي الله عنهما، حين قدم على المدينة، وكان يجتمع بعلي رضي الله عنه في كل يوم خمس مرات. وأطال الشيخ جلال الدين في ذلك في جزء له ألفه في بيان صحة لبس الخرقة، القادرية، والرفاعية، والسهروردية، فراجعه والله أعلم.

قلت: فعلم أن سند التلقين ولبس الخرقة كان السلف يتناولونها فيما بينهم من غير ثبوت من طريق المحدثين، إحساناً للظن بسلفهم، حتى جاء الحافظ ابن حجر والجلال السيوطي ومن وافقهما، فصححوا سماع الحسن من علي رضي الله عنه، وأوصلوا السند بهما، فلا تستغرب يا أخي توقف بعض المحدثين في اتصال السند بلبس الخرقة فإنه معذور في ذلك، لعسر استخراج ذلك من كتب المحدثين على غالب الصوفية، فرحم الله الحافظ ابن حجر والجلال السيوطي، في تبيينهما اتصال السند بذلك.

وسيأتي إن شاء الله تعالى في الكلام على سند لبس الخرقة أن الشيخ محيي الدين بن العربي، لم يطلع على اتصال سندها من طريق النقل الظاهر فأخذها من طريق الخضر عليه السلام لما اجتمع به، حتى اعتمد عليه في السند، والحمد لله رب العالمين.

إذا علمت صحة سند القوم، واتصاله بالتلقين من النبي ﷺ لعلي بن أبي طالب رضي الله عنه، فكذلك لقن رضي الله عنه الحسن البصري، والحسن البصري لقن حبيباً العجمي، وحبيب العجمي لقن داود الطائي، وداود الطائي لقن معروفاً الكرخي، ومعروف الكرخي لقن السري السقطي، والسري لقن أبا القاسم الجنيد، والجنيد لقن القاضي رويم، ورويم لقن محمد بن خفيف الشيرازي، وابن خفيف لقن أبا العباس النهاوندي، والنهاوندي لقن الشيخ فرج الزنجاني، والزنجاني لقن القاضي وجيه الدين، والقاضي وجيه الدين لقن أبا النجيب السهروردي، والشيخ أبو النجيب لقن الشيخ شهاب الدين السهروردي والشيخ شهاب الدين لقن الشيخ نجيب الدين برغوش الشيرازي، وابن برغوش لقن الشيخ عبد الصمد النطنزي، والشيخ عبد الصمد لقن الشيخ حسن الشمسيري، والشمسيري لقن الشيخ نجم الدين، والشيخ نجم الدين لقن الشيخ محمود الأصفهاني، والشيخ محمود لقن الشيخ يوسف العجمي الكوراني، والشيخ يوسف لقن الشيخ حسن التستري، المدفون في قنطرة الموسكي، بمصر المحروسة، والشيخ حسن لقن الشيخ أحمد بن سليمان الزاهد، والزاهد لقن الشيخ مدين، والشيخ مدين لقن الشيخ محمد ولد أخته، وسيدي محمد لقن الشيخ محمد السروي والشيخ علي المرصفي، وهما توبا ولقنا العبد الفقير إلى الله تعالى عبد الوهاب بن أحمد الشعراني، مؤلف هذه الرسالة.

ثم إني تلقنت على سيدي محمود الشناوي، تلميذ هذين الشيخين الآخرين، وتوبني وأذن لي في تلقين الذكر وتربية المريدين، تشبهاً وتبركاً بطريق القوم. ولي طريق أخرى أقرب سنداً من هذه، وهو أنني تلقنت على شيخ مشايخ الإسلام زكريا الأنصاري، وتلقن هو على سيدي محمد الغمري تليمذ سيدي أحمد الزاهد رفيق سيدي مدين، فبيني وبين الشيخ الزاهد رجلان فقط، فأنا مساو من هذ الطريق لسيدي محمد السروي، شيخ شيخي محمد الشناوي، لكن لم يأذن لي في تربية المريدين، سوى شيخي الشيخ محمد الشناوي رحمه الله تعالى.

ولي طريق أخرى بيني وبين رسول الله ﷺ رجلان فقط، وذلك أنني أخذت عن سيدي علي الخواص، وهو أخذ عن الشيخ سيدي إبراهيم المتبولي، وهو أخذ عن رسول الله ﷺ، يقظة ومشافهة، بالكيفية المعروفة بين القوم في عالم الروحانيات، ثم إن سيدي علياً الخواص لم يمت حتى أخذ عن النبي ﷺ من غير واسطة، كما أخذ شيخه سيدي إبراهيم المتبولي، فبيني وبين رسول الله ﷺ رجل واحد، وهذه طريق انفردت بها في مصر الآن، كما أوضحت ذلك في كتاب المنن والأخلاق، وفي العهود المحمدية، والله أعلم.

ولما لقنني شيخي الشيخ محمد الشناوي رحمه الله أنشد هذا البيت:

أهيم بليلى ما حييت وإن أمت ... أوكل بليلى من يهيم بها بعدي

ثم قال لي: قد جرت سنة الأشياخ أنهم يذكرون للمريد سند التلقين بعد تلقينه، وسند إلباسهم الخرقة للمريد قبل إلباسه. وأخبرني أيضاً أن ثم جماعة ببلاد اليمن لهم سند بتلقين الصلاة والسلام على رسول الله ﷺ فيلقنون المريد ذلك، ويشغلونه بالصلاة على رسول الله ﷺ فلا يزال يكثر منها حتى يصير يجتمع بالنبي ﷺ يقظة ومشافهة، ويسأله عن وقائعه كما يسأل المريد شيخه من الصوفية، وأن مريدهم يترقى بذلك في أيام قلائل، ويستغني عن جميع الأشياخ، بتربيته ﷺ له.

قال: وعلامة صدقه في تلك الطريق اجتماعه بالنبي ﷺ كما ذكرنا، فإن لم يحصل له به جمعية فهو بطال، قال: وممن وصل بذلك الشيخ أحمد الزواوي الدمنهوري، وكان ورده في الصلاة على رسول الله ﷺ كل يوم خمسين ألف صلاة، بلفظ «اللهم صَلِّ على سيدنا محمد النبي الأمي وعلى آله وصحبه وسلم» وممن وصل من هذه الطريق أيضاً الشيخ نور الدين الشنواني، منشيء المجلس المتعلق بالصلاة على النبي ﷺ بجامع الأزهر رضي الله عنه، وكذلك ممن وصل من هذه الطريق الشيخ محمد بن داود المنزلاوي، والشيخ محمد العدل الطناجي، والشيخ جلال الدين السيوطي، وجماعة ذكرناهم في مقدمة كتاب «العهود المحمدية» من المتقدمين والمتأخرين رضي الله عنهم أجمعين.

وأخذتها أنا بحمد الله عن الشيخ نور الدين الشنواني وقال: إن من شرطها أكل الحلال، وعدم الاشتغال بشيء آخر معها سوى ما أذن له فيه شرعاً، فالحمد لله رب العالمين.

آداب الذكر

وأما بيان آداب الذكر وبيان ثمرة التلقين فاعلم يا أخي أن كل عبادة خلت عن الأدب فهي قليلة الجدوى، وأجمع الأشياخ أن العبد يصل بعبادته إلى حصول الثواب ودخول الجنة، ولا يصل إلى حضرة ربه إلا إن صحبه الأدب في تلك العبادة، ومعلوم أن مقصود القوم، القرب من حضرة الله الخاصة، ومجالسته فيها من غير حجاب، وأما الثواب فحكمه حكم علف الدواب، قال تعالى: «أنا جليس من ذكرني»[1] يعني ذكرني على وجه الأدب والحضور، والمراد بالمجالسة انكشاف الحجب للعبد، أنه بين يدي ربه عز وجل، وهو تعالى يراه، فمتى دام على العبد هذا الشهود فهو جليس الله تعالى، فإن غاب عن ذلك المشهد، خرج من حضرته. فافهم! فليس المراد بحضرة الحق تعالى مكاناً مخصوصاً في الأرض والسماء، كما قد يتوهم، فإن الحق تعالى لا تحويه السموات تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً، فلا يزال العبد يكثر من الذكر باللفظ حتى يصير الحق تعالى مشهوده، وهناك وضح الفتح لأن الذكر لله حقيقة، هو استصحاب شهود العبد أنه بين يدي ربه، والذكر باللسان إنما هو وسيلة إليه، فإذا حصل له الشهود استغنى في طلب الحضور عن ذكر اللسان، فلا يذكر باللفظ إلا في محل يقتدى به فيه لا غير، لأن حضرة شهود الحق تعالى حضرة بهت وخرس يستغني صاحبها عن الذكر، إذ هو بمنزلة الدليل، فإذا حصلت الجمعية بالمدلول، استغنى العبد عن الدليل.

وأجمعوا على أنه لا ينبغي لشيخ أن يلقن المريد تلقين السلوك ولذلك المريد علاقة دنيوية، لأنه يعرضه بذلك للخيانة، وأجمعوا على أن عمدة الطريق الإكثار من ذكر الله عز وجل، حتى لا يكون للمريد شغل إلا به وحده، وما أذن فيه، وقالوا: إن الذكر منشور الولاية، أي مرسوم من الله للعبد بالولاية، كمراسم ملوك الدنيا بالوظائف، ولله المثل الأعلى؛ فمن وفّق لدوام ذكر الله تعالى فقد أعطي المرسوم بأنه ولي الله عز وجل، ومن يسلب عن الذكر فقد عزل عن الولاية.

وأجمعوا على أن الفتح في الليل أقرب منه في النهار، وقالوا: كل من لم يذكر الله من غروب الشمس إلى الصباح في مجلس واحد ما عدا وقت الصلاة، فلا يجيء منه شيء في الطريق.

---

(١) من حديث قدسي.

وقالوا: من لم يحصل له من الذكر حال الثَّوَى، وحضور مع الله، فليس له قطع المجلس، لأن من لم يحضر، فكأنه لم يذكر.

وقالوا: الذكر سيف المريدين به يقاتلون أعداءهم من الجن والإنس وبه يدفعون الآفات التي تطرقهم.

وقالوا: إن البلاء إذا نزل بقوم وفيهم ذكر حاد عنهم البلاء، وكان ذو النون المصري يقول: «من ذكر الله تعالى حفظه الله من كل شيء» وكان الكتاني يقول: «من شرط الذكر أن يصحبه الإجلال لله والتعظيم له وإلا لم يفلح صاحبه في مقامات الرجال» وكان يقول: «والله لولا أنه تعالى فرض عليّ ذكره لما تجرأت أن أذكره إجلالاً له، مثلي مثل من يذكر الحق تعالى ولم يغسل فمه بألف توبة مما سواه قبل ذكره».

وأجمعوا على أن الذكر إذا تمكن من القلب، صار الشيطان يصرع إذا دنا من الذاكر كما يصرع الإنسان إذا دنا منه الشيطان، فيجتمع عليه الشياطين فيقولون: ما باله؟ فيقال: إنه دنا من ذاكر فصرع. وقد عد الأشياخ للذكر ألف أدب، ثم قالوا: «ويجمع هذه الآداب كلها عشرون أدباً من لم يتحقق بها فبعيد عليه الفتح، خمسة منها سابقة على الذكر، واثنا عشر حال الذكر، وثلاثة بعد الفراغ من الذكر.

فأما الخمسة السابقة، فأولها التوبة النصوح، وهي أن يتوب من كل ما لا يعنيه من قول أو فعل أو إرادة، وكان ذو النون المصري يقول: «من ادعى التوبة وهو يميل إلى شهوة من شهوات الدنيا فهو كاذب».

الثاني: الغسل أو الوضوء كلما أراد الذكر، وتعطير ثيابه وفمه بالبخور والماورد.

الثالث: السكون والسكوت ليحصل له الصدق في الذكر، وذلك أن يشغل قلبه بالله الله الله، بالفكر دون اللفظ، حتى لا يبقى خاطر مع الله، ثم يوافق اللسان القلب، بقول «لا إله إلا الله» يفعل ذلك كلما أراد الذكر.

الرابع: أن يستمد عند شروعه في الذكر بهمة شيخه، بأن يشخصه بين عينيه ويستمد من همته، ليكون رفيقه في السير.

الخامس: أن يرى استمداده من شيخه هو استمداده حقيقة من رسول الله ﷺ، لأنه واسطة بينه وبينه. والاثنا عشر التي تكون حال الذكر:

فالأول: الجلوس على مكان طاهر كجلوسه في الصلاة في التشهد الأول.

الثاني: أن يضع راحتيه على فخذيه. واستحبوا جلوسه للقبلة إن كان يذكر وحده، وإن كانوا جماعة تحلقوا.

الثالث: تطييب مجلس الذكر بالرائحة الطيبة.

الرابع: أن يكون ملبسه حلالاً.

الخامس: اختيار الموضع المظلم من خلوة أو سرداب.

السادس: تغميض العينين، وذلك أن الذاكر إذا غمض عينيه تسد عليه طرق الحواس الظاهرة شيئاً فشيئاً، وسدها يكون سبباً لفتح حواس القلب.

السابع: أن يخيل شخص شيخه بين عينيه ما دام ذاكراً، وهذا عندهم من آكد الآداب لأن المريد يترقى منه إلى الأدب مع الله والمراقبة له.

الثامن: الصدق في الذكر بأن يستوي عنده السر والعلانية فيه.

التاسع: الإخلاص وتصفية العمل من كل شوب، وبالصدق والإخلاص يصل العبد إلى مقام الصِّدِّيقية.

العاشر: أن يختار من صيغ الذكر لفظة (لا إله إلا الله) فإن لها أثراً عظيماً عند القوم لا يوجد في غيرها من سائر الأذكار، فإن فنيت شهواته وأهويته كلها فحينئذ يصلح أن يذكر الله تعالى بلفظ الجلالة فقط من غير نفي، وما دام يشهد شيئاً من الأكوان فذكر الله تعالى بالنفي والإثبات واجب عليه في اصطلاحهم.

الحادي عشر: إحضار معنى الذكر بقلبه على اختلاف درجات المشاهد في الذاكرين، بشرط أن يعرض على شيخه كل شيء يرقى إليه من الأذواق ليعلمه طريق الأدب فيه.

الثاني عشر: تفرغ القلوب عن كل موجود حال الذكر سوى الله بقول: «لا إله إلا الله» فإن الحق تعالى غيور لا يحب أن يرى في قلب الذاكر غيره إلا بإذنه، ولولا أن للشيخ مدخلاً عظيماً في تأديب المريد ما ساغ للمريد أن يخيل شخصه بين عينيه لا في قلبه، وإنما شرطوا نفي كل موجود من الكون من القلب ليتمكن له تأثير قول: لا إله إلا الله، بالقلب، ثم يسري ذلك المعنى إلى سائر الجسد، وأنشدوا:

اتاني هواه قبل أن أعرف الهوى ... فصادف قلباً فارغاً فتمكنا

وأجمعوا على أنه يجب على المريد أن يذكر بقوة تامة بحيث لا يبقى منه متسع، ويهتز

من فوق رأسه إلى أصبع قدميه، وهي حالة يستدلون بها على أنه صاحب همة، فيرجى له الفتح عن قريب إن شاء الله تعالى.

وأجمعوا على أنه يجب على المريد الجهر بالذكر بقوة تامة، وأن ذكر السر والهوينا لا يفيده رقياً، قالوا: ويجب عليه في طريق سرعة الفتح أن يصعد لا إله إلا الله من فوق السرة من النفس التي بين الجنبين ويوصل لا إله إلا الله بالقلب اللحمي الكائن بين عظم الصدر والمعدة، ويميل رأسه إلى الجانب الأيسر مع حضور القلب المعنوي فيه.

قالوا: ويكون الجهر في الذكر برفق خوفاً أن يَتربى له فتاق في بطنه فيتعطل جهره بالكلية، قالوا: وليحذر الذاكر من اللحن في «لا إله إلا الله» فإنها من القرآن فيمد على لام النفي بقدر الحاجة، وتحقق الهمزة المكسورة بعدها ولا يمد عليها أصلاً، ويمد على اللام التي بعدها مداً طبيعياً، وينطق بالهاء بعدها مفتوحة بغير مد بالكلية، ثم ينطق بالهمزة من حرف الاستثناء مكسورة مخففة بغير مدّ أيضاً، ولا يمد على لام الألف بعدها مداً، ثم ينطق بالجلالة فيمد على اللام، ويقف على حرف الهاء بالسكون إن وقف. وكذلك ينبغي اجتناب المد على حرف الهاء من «إله»، فيتولد منه ألف وذلك تحريف للقرآن وكذا النطق بالهاء من الجلالة مضمومة ممدودة حتى ينشأ منها واو.

قال سيدي علي بن ميمون شيخ سيدي محمد بن عراق رضي الله عنه: «وهذا اللحن كله قد أخذته فقراء العجم والروم وأتباع السنة المحمدية والسلف هو المطلوب».

وقال سيدي يوسف العجمي رحمه الله: «وما ذكروه من آداب الذكر محله في الذاكر الواعي المختار، أما المسلوب الاختيار فهو مع ما يرد عليه من الأسرار، فقد يجري على لسانه: الله، الله، الله، الله، أو: هو هو هو، أو لا لا لا أو آه آه آه أو عا عا عا أو آ آ آ أوه ه ه أو ها ها ها أو صوت بغير حرف أو تخبيط، وأدبه عند ذلك التسليم للوارد فإذا انقضى الوارد فأدبه السكون من غير تقول» قالوا: وهذه الآداب تلزم الذاكر باللسان، أما الذاكر بقلبه فلا يلزمه شيء من ذلك، والله أعلم.

وأما الثلاثة آداب التي بعد الذكر، فأولها: أن يسكت بعد سكون وتخشع ويحضر مع قلبه مترقباً لوارد الذكر فلعله يرد عليه وارد فيعمر وجوده في تلك اللحظة أكثر مما تعمّره المجاهدة والرياضة مدة ثلاثين سنة، فربما ورد عليه وارد الزهد فيصير زاهداً، أو وارد تحمل الأذى من الخلق فيصير صابراً، أو وارد الخوف من الله فيصير خائفاً، وهكذا.

قال الإمام الغزالي: «ولهذه السكتة آداب أحدها: استحضار العبد أن الله تعالى مطلع

عليه، وأنه بين يدي الله تعالى، ثانيها: جمع الحواس بحيث لا يتحرك منه شعرة، كحال الهرة عند اصطياد الفأرة، ثالثها: نفي الخواطر كلها وإجراء معنى الله الله: على القلب» قال: «وهذه الآداب لا يثمر للذاكر المراقبة إلا بها».

الثاني: أن يذم نفسه بقدر ثلاثة أنفاس إلى سبعة أنفاس وأكثر، حتى يدور الوارد في جميع عوالمه فتنور بصيرته، وتقطع عنه خواطر النفس والشيطان، وتكشف عنه الحجب، وهذا كالمجمع على وجوبه عندهم.

الثالث: منع شربه الماء البارد عقيب الذكر فإن الذكر يورث حرقة وهيجاناً وشوقاً إلى المذكور الذي هو المطلوب الأعظم من الذكر، وشرب الماء يطفي تلك الحرارة. فليحرص الذاكر على هذه الثلاثة آداب، فإن نتيجة الذكر إنما تظهر بها. والله أعلم.

وأما بيان ثمرة التلقين، فاعلم أن للتلقين ثمرة عامة وثمرة خاصة، ولكل منهما رجال، فالثمرة العامة الدخول بالتلقين في سلسلة القوم فيصير كأنه حلقة من حلق السلسلة الحديد، فإذا تحرك في أمر تحرك معه سائر السلسلة، فإن كل ولي بينه وبين رسول الله ﷺ كأنه واحد من حلق السلسلة، بخلاف من لم يتلقن فإن حكمة حكم الحلقة المنفصلة إذا تحرك في أمر يدهمه لا يتحرك معه أحد لعدم ارتباطه بأحد.

وسمعت سيدي علي المرصفي رضي الله تعالى عنه يقول: «حكم تلقين الشيخ للمريد حكم النواة التي تغرس في أرض يابسة ينتظر ريها بالمطر، فمرادها واستمدادها وانعلافها وخروج ورقها راجع إلى شدة شربها وخفته بحسب الري لا إلى غرس الشيخ فللشيخ البذر وللحق تعالى الإنبات، وربما غرس شيخ غرساً في المريد ومات، وكان خروج الثمرة على يد شيخ آخر بعده، إما لضعف همة المريد أو عدم توالي معاني الذكر على قلبه ولسانه، فإنهم قالوا: إن توالي الذكر بعد التلقين كتوالي المطر على النواة بعد غرسها وذلك لأنه يسرع بالفتح والإنتاج.

فعلم أنه لا يكفي المريد بعد التلقين أن يحضر مع الفقراء مجلس الذكر صباحاً ومساء فقط كما عليه غالب المريدين في هذا الزمان، فإن حكم ثمرة ذلك الذكر كمن يقطر على النواة قطرة ماء أول النهار وقطرة ماء آخره، مع تحلل الشمس والريح بينهما، ومثل ذلك لا يروي أرض النواة بل ربما لم يصل إلى النواة منه طراوة، فيطول زمن فتحه، وربما مات ولم يفتح عليه بشيء، وربما لام هذا المريد الشيخ على تلقينه، وقال ولو في نفسه: ما كان لي حاجة بهذا التلقين لأنه لم يحصل لي فائدة، وغاب عنه أن وظيفة الشيخ إنما هو غرس النواة، وعلى المريد كثرة الذكر، والأعمال المرضية، ثم إن أبطأ فتح المريد فذلك إلى الله لا إلى الشيخ، فحكم

هذا المريد البارد الهمة كحكم القطن الذي يقدح فيه الزناد، فإن كان جافاً علق فيه القبس وإلا طفي كل قبس نزل فيه من شرر النار؛ فافهم.

ثم إذا تلقن المريد وحصل منه معصية أو سوء أدب فالواجب عليه إعادة التلقين ليخرج الشيطان من مدينة جسده وقلبه، إذ التلقين يخرج الشيطان وسوء الأدب يدخله.

وسمعنا سيدي محمد الشناوي يقول: «حكم المريد إذا وقع في سوء أدب بعد التلقين، حكم الحبة إذا سوست وذابت واستحالت إلى طبع العذرة، فلا يرجى منها بعد ذلك إنبات ولا خروج ورق، فضلاً عن الثمرة، بل تتلف تلك الحبة التي بزرها الشيخ بالكلية» وهذا الأمر قد كثر في مريدي هذا الزمان وما منهم أحد يجدد التلقين على شيخه فعدموا النفع وصاروا أجساداً بلا أرواح كأنهم خشب مسندة، فلا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم.

وأما ثمرة التلقين الخاصة الذي هو تلقين السلوك بعد الدخول في سلسلة القوم فصورته: أن الشيخ يتوجه إلى الله تعالى ويفرغ على المريد من قوله له: قل لا إله إلا الله، جميع ما قسم له من علوم الشريعة المطهرة فلا يحتاج بعد هذا التلقين إلى مطالعة كتاب من كتب الشريعة حتى يموت، وقد كان الشيخ أبو القاسم الجنيد رضي الله عنه يقول: «لما لقنني شيخي السري رحمه الله أفرغ فيَّ جميع ما كان عنده من علوم الشريعة، وكان يقول: ما نزل من السماء علم وجعل الحق تعالى للخلق إليه سبيلاً، إلا وجعل فيه حظاً ونصيباً، وكان يقول: يحتاج من يتصدر لأخذ العهود وتلقين الذكر وإرشاد المريدين أن يكون متبحراً في علم الشريعة لأن له في كل حركة ميزاناً شرعياً».

ومن قال من المتمشيخين في هذا الزمان إن هذا الأمر ليس بشرط في التلقين لكونه هو لايقدر عليه، قلنا له: قد نسبت أشياخ الطريق من السلف إلى الجهل، وهذا يقع فيه كثير ممن برز للمشيخة بغير حق فيقول عن كل شرط رآه في مقام من المقامات: هذا ليس بشرط، خوفاً أن يفضح نفسه بين الناس، ولو أنه كان متأدباً لقال: هذا الأمر لا نقدر عليه ثم يطلب له شيخاً ببلد له ليوصله إليه، كما درج عليه الصادقون.

وأما بيان فوائد الذكر وبيان كيفيته وبعض ما ورد في الحث عليه، فاعلم رحمك الله أن فوائد الذكر لا تنحصر لأن الذاكر يصير جليس الله تعالى لا يرى فيه بينه وبين ربه واسطة، فلا يعلم أحد قدر ما يتحفه الحق تعالى من العلوم والأسرار كلما ذكر، لأنها حضرة لا يرد عليها أحد ويفارقها بغير مدد، فيقال لمن ادعى أنه حضر بقلبه في ذكره مع ربه: ماذا أتحفك وأعطاك في هذا المجلس؟ فإن قال: ما أعطاني شيئاً، قلنا له: وأنت الآخر لم تحضر معه شيئاً، فاتخذ شيئاً يزيل عنك الموانع المانعة لك عن الحضور، فإن لم يتخذ له شيخاً قلنا له: أكثر من الذكر ولو

بغير حضور، وكذلك قال صاحب الحكم: «لا تترك الذكر لعدم حضورك مع الله تعالى فيه، لأن غفلتك عن وجود ذكره أشد من غفلتك في وجود ذكره، فعسى أن يرفعك من ذكر مع وجود غفلة إلى ذكر مع وجود يقظة إلى ذكر مع وجود حضور، ومن ذكر مع وجود حضور إلى ذكر مع غيبة عما سوى المذكور، وما ذلك على الله بعزيز».

وأجمع القوم على أن الذكر مفتاح الغيب، وجاذب الخير، وأنيس المستوحش، ومنشور الولاية، فلا ينبغي تركه، ولو مع الغفلة، ولو لم يكن من شرف الذكر إلا أنه لا يتوقت بوقت لكان ذلك كفاية في شرفه قال تعالى: «الذين يذكرون الله قياماً وقعوداً وعلى جنوبهم» قالوا: وما ثم أسرع من فتح الذكر، وهو جامع لشتات صاحبه، وإذا غلب الذكر على الذاكر، امتزج بروح الذاكر حب اسم المذكور، حتى إن بعض الذاكرين وقع على رأسه حجر فقطر الدم على الأرض وكتب: «الله الله».

واعلم يا أخي أنه لا يجد أنس الذكر إلا من ذاق وحشة الغفلة، فأما المستغرق فلا يجد أنساً ولا وحشة، ولا يخاف من سبع أو حية. وبعد ذكر ما نبهناك عليه من فائدة الذكر، فلنورد إليك شيئاً من فضله لأن القلب يقوى بالاطلاع على الدليل، فروى الشيخان وغيرهما مرفوعاً: «ألا أنبئكم بخير أعمالكم وأزكاها عند مليككم، وأرفعها في درجاتكم، وخير لكم من إنفاق الذهب والورق، وخير لكم من أن تلقوا عدوكم فتضربوا أعناقهم ويضربوا أعناقكم؟ قالوا: بلى! قال: ذكر الله».

وروى الشيخان مرفوعاً: «يقول الله عز وجل: أنا عند ظن عبدي بي، وأنا معه إذا ذكرني» وفي رواية «أنا مع عبدي إذا ذكرني وتحركت بي شفتاه».

وكان معاذ بن جبل رضي الله عنه يقول: آخر كلام فارقت عليه رسول الله ﷺ، أن قلت: أي الأعمال أحب إلى الله تعالى؟ قال: «أن تموت ولسانك رطب من ذكر الله».

وفي الصحيح مرفوعاً «إن لكل شيء صقالة، وإن صقالة القلوب ذكر الله، وما من شيء أنجى من عذاب الله من ذكر الله. قالوا: ولا الجهاد في سبيل الله؟ قال: ولا أن يضرب بسيفه حتى ينقطع».

وروى ابن حبان في صحيحه مرفوعاً: «ليذكرن الله قوم في الدنيا على الفرش الممهدة يدخلهم الله الدرجات العلى» وروى الشيخان مرفوعاً: «مثل الذي يذكر الله والذي لا يذكر الله، مثل الحي والميت» وروى الإمام أحمد والطبراني «أن رجلا قال: يا رسول الله، أي المجاهدين أعظم أجراً قال: أكثرهم ذكراً لله، ثم ذكر الصلاة والزكاة والحج والصدقة، كل ذلك ورسول الله ﷺ يقول: أكثرهم لله ذكراً، فقال أبو بكر لعمر: يا أبا حفص، ذهب الذاكرون

بكل خير، فقال رسول الله ﷺ: أجل».

وروى الطبراني مرفوعاً «ليس يتحسر أهل الجنة إلا على ساعة مرّت بهم لم يذكروا الله فيها» وروى الطبراني أيضاً مرفوعاً: «من لم يذكر الله فقد برىء من الإيمان» وقال الشيخ أبو المواهب «من نسي الله تعالى فقد كفر به»، حديث الطبراني «يقول الله عز وجل: يا ابن آدم إنك إذا ذكرتني شكرتني، وإذا نسيتني كفرتني».

قال: وهذا النسيان يطلق على نسيان غفلة الجهل بالله والإشراك به، وعلى نسيان غفلة الإعراض عن الحق، وطريقه مذموم، فإن قيل: فأيهما أنفع، الذكر منفرداً، أو جماعة؟ فالجواب: الذكر منفرداً أنفع لأصحاب الخلوة، والذكر جماعة أنفع لمن لا خلوة له، فإن قلت: فأيما أنفع الذكر جهراً أو سراً؟ فالجواب: الذكر جهراً أنفع لمن غلبت عليه القسوة من أصحاب البداية، والذكر سراً أنفع لمن غلبت عليه الجمعية من أصحاب السلوك، فإن قلت: فهل الاجتماع على الذكر أفضل أم هو بدعة كما يزعمه بعضهم؟ قلنا: هو مستحب يحبه الله ورسوله، وأي عبادة أفضل من عبادة قوم يجتمعون على ذكر الله، ويجالسونه بذكرهم، فإن قلت: فما الدليل على أن الاجتماع على الذكر أفضل؟ فالجواب: أن الدليل على ذلك، ما رواه مسلم والترمذي مرفوعاً «لايقعد قوم يذكرون الله تعالى إلا حفتهم الملائكة، وغشيتهم الرحمة ونزلت عليهم السكينة، وذكرهم الله فيمن عنده».

وروى البخاري مرفوعاً «إن لله ملائكة يطوفون في الطريق يلتمسون أهل الذكر، فإذا وجدوا قوماً يذكرون الله عز وجلّ، تنادوا: هلمّوا إلى حاجتكم، قال: فيحفونهم بأجنحتهم إلى سماء الدنيا» الحديث.

وروى الإمام أحمد بإسنادٍ حسن مرفوعاً «ما من قوم اجتمعوا يذكرون الله عز وجل، لا يريدون بذلك إلا وجهه، إلا ناداهم مناد من السماء: أن قوموا مغفوراً لكم، فقد بُدلت سيئاتكم حسنات».

وروى الترمذي بإسناد حسن مرفوعاً: «ما من قوم اجتمعوا يذكرون الله عز وجل، لا يريدون بذلك إلا وجهه، إلا ناداهم مناد من السماء: إذا مررتم برياض الجنة فارتعوا، قالوا: وما رياض الجنة يا رسول الله؟ قال: حلق الذكر».

وروى ابن حبان في صحيحه مرفوعاً: «يقول الله عز وجل: سيعلم أهل الجمع من أهل الكرم، فقيل: من أهل الكرم يا رسول الله؟ قال: أهل مجالس الذكر في المساجد، فاذكر الله حتى يقولوا مجنون».

وروى أبو داود مرفوعاً: «لأن أقعد مع قوم يذكرون الله تعالى من صلاة الغد حتى تطلع الشمس، أحبّ إلي من أن أعتق أربعة من ولد إسماعيل، ولأن أقعد مع قوم يذكرون الله تعالى من صلاة العصر إلى أن تغرب الشمس، أحبّ إلي من أن أعتق أربعة».

قال علماؤنا: وتخصيص الرقبة بولد إسماعيل لأن كل رقبة من ولد إسماعيل باثنتي عشرة رقبة من سائر الرقاب. وروى الإمام أحمد بإسناد حسن، عن عبدالله بن عمرو بن العاص قال: «قلت يا رسول الله، ما غنيمة مجالس الذكر؟ قال: غنيمة مجالس الذكر الجنة» قال الشيخ عز الدين بن عبد السلام: وهذا الحديث وأمثاله ملحق بدرجة الأمر، لأن كل فعل مدحه الشارع، أو مدح فاعله لأجله أو وعد عليه بخير عاجل أو آجل، فهو مأمور به، لكنه رضي الله عنه تردد بين الإيجاب والندب، والأحاديث في ذلك كثيرة.

وأجمع العلماء سلفاً وخلفاً، على استحباب ذكر الله تعالى جماعة في المساجد وغيرها، من غير نكير، إلا إن شوش ذكرهم بالذكر على نائم أو مصل أو قارىء، أو نحو ذلك مما هو مقرر في كتب الفقه.

وقد شبه الإمام الغزالي، ذكر الإنسان وحده، وذكر الجماعة، بأذان المنفرد وأذان الجماعة، قال: «فكما أن أصوات المؤذنين جماعة، تقطع جرم الهواء أكثر من صوت مؤذن واحد، كذلك ذكر الجماعة على قلب واحد أكثر تأثيراً في رفع الحجاب من شخص واحد» وأما من حيث الثواب فلكل واحد ثواب نفسه وثواب سماع رفيقه. ووجه كون الذكر جماعة أكثر تأثيراً في رفع الحجب الكثيفة، كون الحق تعالى شبه القلوب بالحجارة، ومعلوم أن الحجر الكبير لا ينكسر إلا بقوة جماعة مجتمعين على قلب واحد، لأن قوة الجماعة أشد من قوة الشخص الواحد، ومن هنا اشترطوا في الذكر أن يكون بقوة تامة، واستدلوا بقوله تعالى: «ثم قست قلوبكم من بعد ذلك فهي كالحجارة أو أشد قسوة» فكما أن الحجر لا ينكسر إلا بقوة، كذلك الذكر لا يؤثر في جمع شتات قلب صاحبه إلا بقوة.

فإن قيل أيما أفضل ذكر لا إله إلا الله، أو زيادة محمد رسول الله؟ فالجواب: الأفضل في ذكر السالكين، ذكر لا إله إلا الله، دون محمد رسول الله، حتى يحصل لهم الجمعية مع الله تعالى بقلوبهم، فإذا حصلت، فذكر محمد رسول الله مع ذلك أفضل.

وبيان ذلك أن محمداً رسول الله إقرار، والإقرار يكفي في العمر مرة واحدة، والمقصود من تكرار التوحيد كثرة الجلاء لحجب النفوس، على أن قول العبد لا إله إلا الله، امتثال لقول رسول الله «قل لا إله إلا الله» هو عين إثبات رسالته، ولهذا اقتصر في بعض الروايات على قول لا إله إلا الله فقال: «أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا لا إله إلا الله، فإذا قالوها فقد عصموا

مني دماءهم وأموالهم إلا بحق الإسلام، وحسابهم على الله».

فلم يقل في هذه الرواية وأن محمداً رسول الله لتضمن هذه الشهادة الشهادة له ﷺ بالرسالة. فإن قيل فأيما أفضل الذكر أو تلاوة القرآن من حيث أنه ذكر وتلاوة؟ فالجواب: الذكر أفضل للمريد، وتلاوة القرآن أفضل للكامل الذي عرف عظمة الله تعالى، ومرادنا بالذكر والقرآن ما لم يقيده الشارع بوقت، فإن وقت ذلك كان الذكر أفضل في موضعه، والتلاوة في موضعها أفضل.

وكان الشيخ عز الدين بن عبد السلام يقول: «تارة يكون القرآن أفضل، وتارة يكون الذكر أفضل» وكان يقول: «اختلف العلماء في أيما أفضل، قول العبد: الله الله الله، أو لا إله إلا الله؛ فذهب قوم من الصوفية إلى أن ذكر الجلالة أفضل للمبتدىء، وذهب جمهور الصوفية والمحدثين والفقهاء، إلى أن لا إله إلا الله أفضل للمبتدىء والمنتهي. وذهب قوم إلى أن لا إله إلا الله، ذكر المبتدي، وقول الله الله فقط ذكر المنتهي، ولكل من المذاهب الثلاثة وجه.

وأما سند القوم بإلباسهم الخرقة للمريد فروينا عن الحافظ ضياء الدين المقدسي، والحافظ ابن مبدي، وحافظ العصر الشيخ جلال الدين السيوطي أن الحسن البصري وأويساً القرني كانا يلبسان الخرقة لأصحابهما، وكان الحسن البصري يخبر بأنه لبس الخرقة من يد علي بن أبي طالب رضي الله عنه، وأويس القرني يخبر بأنه لبسها من يد عمر بن الخطاب، ومن يد علي بن أبي طالب، وهما لبساها من يد رسول الله ﷺ ورسول الله ﷺ لبسها من يد جبريل عليه السلام، بأمر من ربه عز وجل.

واعلم يا أخي أن بعض المحدثين لم يزل يطعن في صحة سند لبس الخرقة من حيث اتصال سندها في كل عصر، حتى جاء الشيخ جلال الدين السيوطي رحمه الله فصحح تبعاً لجماعة من الحفاظ طريق سندها، وسماع الحسن البصري من علي رضي الله عنه، كما مرّ بيانه في سند تلقين القوم، حتى إن الشيخ الكامل الراسخ محيي الدين بن العربي رضي الله عنه، كان يلبس الخرقة للمريد ويقول: «هذا بسبب التبرك بفعل السلف ولم أجد في ذلك دليلاً» وذكر في الباب الخامس والعشرين من الفتوحات ما نصه «كنت لا أقول بلباس الخرقة التي يفعلها الصوفية وما كنت أعرف الخرقة إلا الصحبة والأدب لا غير، قال: ولهذا لا يوجد إلباسها متصلاً برسول الله ﷺ، ولكن لما رأيت الخضر عليه الصلاة والسلام بمكة يلبسها للأولياء، قلت بها من ذلك الوقت، فلبستها من يده تجاه الحجر الأسود، وألبستها للناس بعد ذلك، وكذلك لبستها من يد عيسى عليه السلام في بعض الوقائع، قال: والسر في إلباسها أن الشيخ إذا أراد أن يكمل فقيراً والشيخ في وقت غلبة حاله عليه، ينزع ذلك الثوب الذي عليه

ويلبسه للمريد الذي يريد تكملته، فيسري فيه ذلك الحال فيكمل حاله في الأخلاق إذ ذاك» فهذا هو اللباس المعروف بين العارفين، كالخلعة من الملك. وأما من ألبسها بغير حال فإنما ذلك من باب التشبه والتبرك لا غير.

إذا علمت ذلك فأقول وبالله التوفيق:

ذكر الشيخ المرسي أبو العباس رحمه الله «يجب على من يلبس المريدين الخرقة من طريق السلوك أن يعين رجال سندها إليها لأنها حينئذ رواية، والرواية يجب تعيين رجال سندها، وأما أصحاب الجذبات الإلهيّة فلا يجب عليهم تعيين مشايخهم إن ألبسوا المريد الخرقة لأنها هداية من الله، وفتحهم من عين المنّة لا واسطة فيه». إذا علمت ذلك فقد لبست الخرقة المباركة من سيدنا ومولانا شيخ الإسلام زكريا الأنصاري المدفون تجاه وجه الإمام الشافعي في شباك الشيخ نجم الدين الخوشاني، وأرخى لي العذبة، وذلك في المحرم سنة أربع عشرة وتسعماية، وهو لبسها من يد سيدي الشيخ محمد الغمري المدفون بالمحلة الكبرى، وهو لبسها من يد سيدي أحمد الزاهد، وهو لبسها من يد سيدي حسن التستري، وهو لبسها من يد سيدي يوسف العجمي، وهو لبسها من يد سيدي الشيخ محمود الأصفهاني، وهو لبسها من يد الشيخ عبد الصمد النطنزي، وهو لبسها من يد الشيخ نجيب الدين علي بن برغوش، وهو لبسها من يد الشيخ شهاب الدين السهروردي، وهو لبسها من يد عمّه إلى النجيب السهروردي، وهو لبسها من يد عمّه القاضي وجيه الدين، وهو لبسها من يد أبيه محمد الشهير بعمويه، وهو لبسها من يد الشيخ أحمد الدينوري، وهو لبسها من يد أبي القاسم الجنيد، وهو لبسها من يد أبي جعفر الحداد، وهو لبسها من يد أبي عمرو الإصطخري، وهو لبسها من يد شقيق البلخي، وهو لبسها من يد إبراهيم بن أدهم، وهو لبسها من يد موسى بن يزيد الراعي، وهو لبسها من يد أويس القرني، وهو لبسها من يد عمر بن الخطاب وعلي بن أبي طالب، حين أمرهما النبي ﷺ بالاجتماع به.

ولبسها الإمام عمر والإمام علي رضي الله عنهما من يد رسول الله ﷺ، ورسول الله ﷺ لبسها من يد جبريل، كما مر أول الكلام، وجبريل عليه السلام لبسها من الحق جل وعلا، كما رأيته في رسالة الشيخ عبد الرحمن القوصي تلميذ أبي عبدالله القرشيّ، وروى بسنده المتصل إلى رسول الله ﷺ «أنه رأى ليلة الإسراء صندوقاً من نور ففتحه جبريل فإذا فيه خروق حمر وخضر وسود، فقال يا جبريل ما هذا؟ فقال: هذه خرق، تكون لخواص أمتك» انتهى، ولم أجد ذلك لغيره، فالحمد لله رب العالمين.

انتهت المقدمة ولنشرع في أبواب الكتاب فنقول:

الباب الأول

آداب المريد

في ذكر نبذة من آداب المريد في نفسه وذكر ما قاله الأشياخ في ذلك. فأقـول وبالله التوفيق:

اعلم يا أخي أن جميع آداب المريد يعسر حصرها وضبطها في عبارة على وجه التفصيل، ولكن نذكر لك طرفاً صالحاً من ذلك: على أن وظيفة الشيخ أنه يستخرج للمريد ما هو كامن فيه لا غير، فإن الله تعالى قد بث في كل روح جميع ما يتعلق بصاحبها من المحامد والمذام، فما أمره شيخه أو نهاه عنه إلا وهو كامن في روحه، وليس مع الشيخ شيء يعطيه للمريد خارجاً عنه، فإن حكم المريد في ابتداء أمره، حكم النواة الكامن فيها النخلة التي هي هنا عبارة عن الصدق في الطريق أو الكذب فيها. فإن كان صادقاً تفرعت ثمرة صدقه وأثمرت حتى تشرف على جميع جيرانه ويأكلون من ثمرتها، بل تنتشر إلى جميع أهل بلده أو إقليمه وينتفعون بها، ويظهر صدقه وصلاحه للخاص والعام، حتى أنه لو أراد كتمان صلاحه عنهم لا يقدر، وإن كان المريد كاذباً في محبته للطريق تفرعت شجرة كذبه ونصبه ونفاقه حتى تشرف على جميع جيرانه وبلده وإقليمه ويظهر لهم كذبه ونفاقه ورياؤه، حتى لو أراد أن يتظاهر بصورة الصادق لا يقدر على ذلك، لأن أفعاله الرذيلة تكذب دعواه، ويفتضح وترفضه الطريق، حتى تلحقه بفقه العوام عقوبة له على كذبه على طريق الله عز وجل، وربما أعطاه الله تعالى رائحة من الصدق ثم سلبها منه، فقال الناس كلهم فيه: فلان سلب عن طريق الفقراء، وما بقي فيه رائحة من روايح أهلها، فيصير يرخي له عذبة ويربي له شعرة، ويلبس الصوف، ويتحلى بحلاس الفقراء والناس يرونه عرياناً من الأدب لا يكاد سلبُه يخفى على أحد من الناس.

فابن أمرك يا أخي على الصدق في طلب طريق أهل الله تعالى وإلا رفضك الطريق ولو على طول، والله يتولى هداك. إذا علمت ذلك فأقول وبالله التوفيق: من شأن المريد أن يصدق

في محبّة الشيخ لأنه دليله في السلوك به في الغيب كدليل الحجاج في الليالي المظلمة، ومن لازم المحبة الطاعة، ومن لازم عدم المحبة المخالفة، ومن خالف دليله تاه وانقطع سيره وهلك.

ومحكّ الصدق في محبّة الشيخ أن لا يصرفه عنه صارف ولا ترده السيوف والمتالف، وقد ادعى بعضهم الصدق في محبة الشيخ وإخوانه في الطريق وأنه لا يصرفه عنهم صارف ولو هجروه بغير حق وشاع ذلك بين الخاص والعام فقام يوماً وأنشد على رؤوس الفقراء:

لو عذبوني كل يوم وليلة على غير ذنب سرني ورضيت

فقال له شخص من حذاق المريدين: تكذب! فتشوش وجلس وظهر أثر ذلك في وجهه، فأجمع الفقراء على كذبه وقالوا له: كيف تقول ما قلت وتتكدر من قول بعض الناس لك تكذب!؟ وإذا كنت لا تحتمل نقطة واحدة فكيف تحتمل التعذيب كل يوم وليلة على غير ذنب!؟ فاستغفر المدعي واعترف بكذبه.

فاصدق يا أخي في محبة الشيخ تنل كل خير والله يتولى هداك. ومن شأنه أن لا يدخل في عهد شيخ حتى يتوب من سائر الذنوب الظاهرة والباطنة، كالغيبة، وشرب الخمر، والحسد، والحقد، ونحو ذلك، كما أنه ينبغي له أن يرضي سائر الخصوم في العرض والمال، فإن حضرة الطريق هي حضرة الله عز وجل، ومن لم يتطهر من سائر الذنوب باطناً وظاهراً، لا يصح له دخولها، فحكمه حكم من دخل الصلاة وفي بدنه أو ملبوسه نجاسة لا يعفى عنها أو لبعد لم يصبها الماء، فإن صلاته باطلة ولو كان شيخه من أكبر الأولياء لا يَقدر يسير به في طريق أهل الله خطوة إلا إن طهره قبل ذلك.

وهذا الباب قد أغفله غالب الناس فيأخذون العهد على المريد وعليه الذنوب الظاهرة والباطنة، فضلاً عن حقوق العباد في المال والعرض، فلا يصح له نتاج في الطريق، وسمعت سيدي علي الخواص رحمه الله يقول: «طريق أهل الله تعالى كدخول الجنة، فكما لا يصح لأحد من أهل الجنة دخولها وعليه حق لآدمي، كما ورد في الصحيح، فكذلك دخول طريق الله عز وجل» انتهى.

ثم ضابط التوبة الرجوع عما كان مذموماً في الشرائع إلى ما كان محموداً فيه، كل تائب بحسب مرتبته، فإنه ربما كان ما يحمد عليه إنسان يستغفر منه إنسان آخر، من باب «حسنات الأبرار سيئات المقربين» فاعلم أن من كان مصرّاً على ارتكاب المخالفات، وأكل الشهوات، وملازمة المحرمات، فبينه وبين الطريق كما بين السماء والأرض. ثم لا يخفى أن النفس من

شأنها الدعاوى الكاذبة، فربما ادعت الصدق في التوبة وهي كاذبة، فلا يقبـل في ذلك إلا بشهادة شيخه له بالصدق في كل مقام ادّعاه في التوبة، حتى يصل إلى مقام يتوب كلما غفل عن شهود ربه طرفة عين، ثم يترقى في مقامات التعظيم لله تعالى أبد الأبدين، ودهر الداهرين، لا يقف في التعظيم على مقام، ولا قرار، وهذا غاية ما قالوه في التوبة.

فهي التوبة عن الكبائر، ثم الصغائر، ثم المكروهات، ثم من خلاف الأولى، ثم من رؤية الحسنات، ثم من رؤية أنه صار معدوداً من فقراء الزمان والله أعلم.

ومن شأنه ملازمة المجاهدة لنفسه فلا يصطلح معها أبداً، وقد كان الشيخ أبو علي الدقاق رحمه الله يقول: «من زين ظاهره بالمجاهدة، زين الله باطنه بالمشاهدة، ومن لم يجاهد نفسه في بدايته لا يشم من الطريق رائحة» لأن من خصائص طريق أهل الله تعالى أن العبد إذا لم يعط الطريق كله لا تعطه الطريق بعضها.

وكان أبو عثمان المغربي رحمه الله يقول: «من ظن أنه يفتح عليه بشيء من هذه الطريق بغير مجاهدة، فقد رام المحال» وكان أبو عليّ الدقاق يقول: «من لم يكن له في بدايته قومة لم يكن له في نهايته جلسة». وكان الحسن العزار يقول: «بنيت طريق القوم على ثلاثة أشياء، أن لا يأكل مريدها إلا عند الفاقة، ولا ينام إلا عند الغلبة، ولا يتكلم إلا عند الضرورة الشرعية» وكان سيدي إبراهيم بن أدهم رحمه الله يقول: «لا ينال الرجل درجة الصالحين حتى يكون فيه ست خصال: المجاهدة للنفس، والذل لها، والسهر، ومحبة التقلل من الدنيا، والفرح بإدبارها، وقصر الأمل». وكان الشبلي رحمه الله يضرب نفسه بقضبان الخيزران إذا جاءه النوم حتى ربما فنيت الحزمة كلها قبل الفجر، وكان كثيراً ما يكتحل بالملح حتى لا يأخذه النوم، وكان كثيراً ما يضرب يديه ورجليه في الحائط، إذا لم يجد شيئاً يضرب به نفسه، وكان يقول: «ما هالني شيء إلا وركبته».

قلت: وهذه الأمور لا ينبغي لأحد الاعتراض على أربابها لأنها من باب ارتكاب أخف المفسدتين عندهم، فهم يرون احتمال شدة الألم أخف عليهم من احتمال الغفلة عن الله بنوم أو غيره، عكس ما عليه غيرهم والله أعلم.

ومن شأنه أن لا يتكلم ولا يسكت إلا بضرورة أو لحاجة شرعية وسد باب الكلام اللغو جملة، وقد عدوا قلة الكلام من أحد أركان الرياضة وكان بشر بن الحارث يقول: «إذا أعجبك الكلام فاسكت وإذا أعجبك السكوت فتكلم، فإن في الكلام حظ النفس، وإظهار صفات المدح».

وقد كان الإمام أبو بكر الصديق رضي الله عنه يضع كثيراً الحجر[1] في فيه حتى يقل كلامه، فكان كلما أراد أن يتكلم لغواً تذكر بالحجر، وقيل إنه وضع الحجر في فيه كذا سنة. وقال رسول الله ﷺ: «هل يكبّ الناس في النار على وجوههم إلا حصائد ألسنتهم» والحمد لله رب العالمين. ومن شأنه كثرة الجوع بطريقه الشرعي، وهو معظم أركان الطريق، فكما أن الشارع جعل معظم الحج عرفة، كذلك أهل الله جعلوا الجوع هو الطريق.

أركان الطريق

وأركان الطريق أربعة أشياء: الجوع، والعزلة، والسهر، وقلة الكلام، وإذا جاع المريد تبعه الأركان الثلاثة بالخاصية، إذ الجوعان من شأنه أن يقل كلامه، ويكثر سهره، ويحب العزلة عن الناس. وأنشدوا:

بيت الولاية قسمت أركانه ... ساداتنا فيه من الأبدال
ما بين صمت واعتزال دائماً ... والجوع والسهر النزيه الغالي

وكان أبو القاسم القشيريّ رحمه الله تعالى يقول: «إنما أساس باب الطريق الجوع لأنهم لم يجدوا ينابيع الحكمة تحصل لهم إلا به» وقد كانوا يتدرجون في تقليل الأكل شيئاً فشيئاً حتى وصلوا إلى أكل لقمة واحدة كل يوم وليلة، وبعضهم وصل إلى تمرة أو لوزة أو زبيبة، وكان أبو عثمان المغربي رحمه الله تعالى يأكل كل ستة أشهر أكلة واحدة[2]، قال الشيخ محيي الدين في الفتوحات المكية: «وقد بلغنا أن الله تعالى لما خلق النفس قال لها: من أنا؟ فقالت له: فمن أنا؟ فأسكنها في بحر الجوع أربعة آلاف سنة، ثم قال: من أنا؟ فقالت: أنت ربي».

وكان سهل بن عبدالله التستري لا يأكل إلا بعد خمسة عشر يوماً، وكان إذا دخل رمضان لا يأكل حتى يرى هلال شوال، وكان يفطر كل ليلة من رمضان على الماء فقط ليخرج من الوصال في الصوم ويقول: «لما خلق الله الدنيا جعل في الجوع العلم والحكمة، وجعل في الشبع الجهل والمعصية» وكان رحمه الله تعالى إذا جاع قوي، وإذا شبع ضعف.

وكان أبو سليمان الداراني يقول: «مفتاح الدنيا الشبع، ومفتاح الآخرة الجوع» يعني أعمالها وكان يحيى بن معاذ يقول: «الشبع نار، والشهوة مثل الحطب، يتولد منه الإحراق ولا ينطفىء ناره حتى يحرق صاحبها». وكان سهل بن عبدالله يقول: «من أراد أن يأكل في كل يوم مرتين، فليَبْنِ له معلفاً» وكان مالك بن دينار رحمه الله يقول: «من أراد أن يفر الشيطان من ظله

---

(١) يريد الحصى الصغير.

(٢) هذا مقام الصفوة من المجاهدين الروحانيين، وليس نهجاً عاماً للسالكين.

فليقهر شهوته» وأقاويل السلف في ذلك كثيرة والله أعلم.

ومن شأنه معانقة الأدب على الدوام مع الله تعالى ومع أوليائه وإخوانه فلا يسامح نفسه قط في سوء أدب، وكان أبو علي الدقاق رحمه الله يقول: «يصل العبد بعبادته إلى الجنة ولا يصل إلى حضرة ربه إلا بالأدب في العبادة، ومن لم يراع الأدب في طاعته فهو محجوب عن ربه بسبعين حجاب» وكان رحمه الله لا يستند إلى شيء قط من مخدة أو جدار إلا لضرورة ويقول: «إن ذلك من سوء الأدب» وكان عبدالله بن الجلا يقول: «من لا أدب له فلا شريعة له، ولا إيمان، ولا توحيد» أي كاملاً، وكان ابن عطاء يقول: «لا يكون المريد أديباً حتى يستحي من الله تعالى أن يمد رجله بين يديه في ليل ونهار» وكان الحريزي يقول: «ما مددت رجلي في الخلوة منذ عشرين سنة» وكان يقول: «الأدب الشرعي مع الله تعالى في كل أمر أولى لكل عاقل، ولم يرد في الشرع التصريح بعين الأدب في عين ذلك الأمر».

وكان يقول: «إذا كان من يعاشر ملوك الدنيا بغير أدب يعرّض نفسه للقتل فكيف من يسيء أدبه مع الحق ويجتريء على محارمه؟» وكان يقول: «ترك الأدب موجب للطرد فمن أساء الأدب على البساط رُد إلى الباب ومن أساء الأدب على الباب رد إلى سياسة الدوابّ» وكان الإمام الشافعي رضي الله عنه يقول: «قال لي الإمام مالك رحمه الله: يا محمد اجعل علمك ملحاً وأدبك دقيقاً» وكان عبد الرحمن بن القاسم رحمه الله يقول: «صحبت الإمام مالكاً رحمه الله عشرين سنة، فكان منها ثماني عشرة سنة في تعليم الأدب، وسنتان في تعليم العلم، فليتني جعلت العشرين كلها أدباً».

وكان الشبلي رحمه الله تعالى يقول: «من علامة أهل حضرة الله أن لا يقع أحدهم في سوء أدب ولو انبساطاً، فواردات الحق تعالى في السر أو في العلانية فإن حضرة الحق تعالى حضرة أدب وبهت وجلال وخوف فلا يناسبها الانبساط لعدم المجانسة بل لو قدر أن وليّاً مكث في الحضرة عمر نوح، فلا يزداد إلا هيبة على ممر الأيام والدهور، وذلك لعدم تكرار تجليات الحق تعالى، فكل تجل ورد على العبد فهو جدير أن لا يعطي صاحب تلك الحضرة إلا الأدب والهيبة فافهم».

وكان أبو الحسين النوري رحمه الله يقول: «من لم يتأدب للوقت فهو مقت» وكان ذو النون المصري رحمه الله يقول: «من ترخص بترك الأدب رجع من حيث جاء» وكان سيدي محمد الشناوي رحمه الله يقول: «حكم المريد عند دخوله في الطريق حكم الجديد النقوة، وحكمه عند وقوعه في سوء أدب بعد ذلك حكم النصف الذي خرج زغل فهو يرمي به ولا يقبله أحد» والله تعالى أعلم.

احذر نفسك

ومن شأنه مخالفة هوى نفسه فلا يوافقها قط فيما تهواه، وقد أجمع الأشياخ على أن رأس مال المريد مخالفة نفسه، ومن أطلق عنان نفسه فيما تهواه، فقد أهلكها، وكان أبو حفص رحمه الله يقول: «من لم يتهم نفسه على دوام الحالات، ولم يخالفها في جميع شهواتها، ولم يجرها إلى مكروهها في سائر الأوقات، فهو معذور في سائر الحالات» وكان أبو بكر الطهستاني يقول: «أعظم حجاب بينك وبين ربك موافقة نفسك» وكان ابن عطاء يقول: «من طلب عوضاً من الله على عبادته استحق الطرد والمقت» وكان ابن شيبان يقول: «ما أكل عبد شهوة إلا حجب عن شهود ربه، قال: ولقد مكثت عشرين سنة، أشتهي أكلة عدس فلم يتفق لي أكلها، ثم إني أكلتها وخرجت فأخذني أعوان السلطان وقالوا: هذا كسر جرار الخمر مع جماعة السلطان بالأمس، فضربوني مائة خشبة، ثم مرّ عليّ أستاذي أبو عثمان المغربي فقال: ماذا صنعت حتى وقع لك هذا؟ فقلت: أكلت شهوة! فقال الشيخ: أطلقوه فأطلقوني، وقال لي: نجوت إن شاء الله مجاناً».

وكان السري السقطي رحمه الله يقول لي: «أكثر من أربعين سنة ونفسي تطالبني أن أغمس جزرة في دبس فلم أطعمها ذلك، وكان يقول: من صدق في ترك شهوة، كفاه الله تعالى موتها» وأوحى الله تعالى إلى داود عليه السلام: «يا داود حذر وأنذر قومك أكل الشهوات، فإن القلوب المتعلقة بشهوات الدنيا عقولها محجوبة عني» وفي رواية «يا داود إن أهون ما أنا صانع بعبدي إذا آثر هواه على طاعتي أن أحرمه لذيذ مناجاتي».

وكان إبراهيم الخواص رحمه الله يقول: «من اتباع الهوى أن يعبد العبد ربه لطلب ثواب أو خوفاً من عقاب فلا يزداد صاحب هذا القصد على مرور الزمان إلا إدباراً» وفي بعض الكتب الإلهية يقول الله عز وجل: «ومن أظلم ممن عبدني لجنة أو نار، لو لم أخلق ألم أكن أهلاً لأن أطاع؟».

قلت: من اتباع الهوى إيثار النوم على قيام الليل في مثل ليالي الصيف، وذلك دليل على عدم محبة الله عز وجل، ومن لا يحب الله فهو عدو الله لأن الله تعالى قد أوحى إلى داود عليه السلام: «يا داود كذب من ادعى محبتي فإذا جنه الليل نام عني» فشهد الحق على أن من ينام من غير غلبة بأنه كاذب في محبته.

دليل التوبة الصادقة

وكان إبراهيم بن أدهم رضي الله عنه يقول: «من علامة صدق العبد في التوبة عن ذنب

أن يجد في قلبه بعدها لذة لا يقدر قدرها فمن لم يجد في قلبه لذة بعدها فهو كاذب في تركها، ولعله يرجع إلى الذنب عن قريب».

ومن شأنه أن يلازم على عدم الإخلال بأركان الطريق وشروطها، ومتى انهدم ركن منها أو شرط تبعه الباقي، وقد تقدم أن أركان الطريق أربعة: الجوع، العزلة، الصمت، والسهر، وما زاد على هذه الأربعة فهو من التوابع، وقالوا: من ضيع الأصول حرم الوصول، فاعلم ذلك.

كيف يختار المريد شيخه؟

ومن شأنه أن لا يتتلمذ إلا لشيخ قد تضلع من علوم الشريعة وذلك ليكفيه عن الاجتماع على غيره، وقد أخبرني شيخنا الشيخ محمد الشناوي رحمه الله، أنه قال يوماً لشيخه سيدي محمد السروي: «مرادي أن أزور الشيخ فلان، فعبس الشيخ في وجهه وقال: يا محمد إذا كنت لا أكفيك فكيف اتخذتني شيخاً لك؟! قال: فمن ذلك اليوم، ما زرت غيره حتى مات» فعُلم أن من جرى عليه المقدور ودخل في عهدة شيخ لم يتضلع من علوم الشريعة فلا حرج عليه في الاجتماع بغيره، كما هو حال أكثر مشايخ هذا الزمان، وعلى ذلك يحمل كلام أبي القاسم القشيري رحمه الله في قوله: «ويقبح على المريد أن ينتسب إلى مذهب أحد غير شيخه، بل يقلد شيخه فقط» فإنه بيقين محمول على شيخ قد تبحر في علوم الشريعة فلا يقبح على المريد الانتساب إلى غيره بل ذلك واجب عليه.

الصوفي فقيه

وقد كان الإمام أحمد بن حنبل مع جلالة قدره إذا توقف في مسألة يقول لأبي حمزة البغدادي رضي الله عنه: «ما تقول في هذه المسألة يا صوفي؟» فمهما قال له اعتمده، وكفى بذلك منقبة لمشايخ الصوفية. وكذلك بلغنا عن القاضي أحمد بن شريح أنه كان يعترف بفضل أبي القاسم الجنيد ويجلس في حلقته ويقول إذا سئل عن كلامه: «إني لم أفهم منه شيئاً، ولكن صولة الكلام ليست بصولة مبطل».

وقد كان الشيخ أبو القاسم الجنيد رحمه الله يقول: «لو علمت أن لله تعالى علماً تحت أديم السماء أشرف من هذا العلم الذي بأيدي الصوفية لسعيت إليه» وكان يقول: «ما نزل علم من السماء وجعل الله تعالى للخلق إليه سبيلاً إلا وجعل لي فيه حظاً ونصيباً» وكان أبو القاسم القشيري رحمه الله يقول: «قد درج أشياخ الطريق كلهم على أن أحداً منهم لم يتصدر قط للطريق إلا بعد تبحره في علوم الشريعة ووصوله إلى مقام الكشف الذي يستغنى به عن الاستدلال، وما انتسب مريد إلى غيرهم وقرأ عليه العلوم دونهم إلا لجهله بمقامهم، فإن حجج

القوم أظهر من حجج غيرهم لتأيدها بالكشف، ولم يكن منهم أحد في عصر من الأعصار إلا وعلماء ذلك الزمان يتواضعون له ويعملون بإشارته، ويطلبون منه تفريج كربهم في الشدائد، ولولا شهود العلماء من الصوفية أموراً تؤذن بعلو مقامهم عليهم، لكان الأمر بالعكس» وقد بسطنا الكلام على ذلك في قواعدالصوفية الكبرى والله أعلم.

هل للمريد أن يتخذ أكثر من شيخ؟

ومن شأنه أن لا يكون له إلا شيخ واحد، فلا يجعل له قط شيخين ؛لأن مبنى طريق القوم على التوحيد الخالص، وقد ذكر الشيخ محيي الدين في الباب الأحد والثمانين ومائة من الفتوحات المكية ما نصه:

«اعلم أنه لا يجوز لمريد أن يتخذ له إلا شيخاً واحداً لأن ذلك أعون له في الطريق، وما رأينا مريداً قط أفلح على يد شيخين، فكما أنه لم يكن وجود العالم بين إلهين ولا المكلف بين رسولين ولا امرأة بين زوجين، فكذلك المريد لا يكون بين شيخين»، هذا كله في مريد تقيد بشيخ بقصد سلوكه الطريق، وأما من لم يتقيد فهو متبرك بالشيخ فقط، فمثل ذلك لا يمنع من الاجتماع بأحد.

وقد كان سيدي علي المرصفي رحمه الله تعالى يقول: «من ابتلي بصحبة شيخين فأكثر، فليجعل شيخه الحقيقي في حاشية قلبه، بجانب محبة رسول الله ﷺ، لأنه نائب عن رسول الله ﷺ في نصح أمته وإرشادهم إلى طرق الهدى» وكان أبو يزيد البسطامي رضي الله عنه يقول: «من لم يكن له أستاذ واحد فهو مشرك في الطريق، والمشرك شيخه الشيطان» وكان أبو علي الدقاق رضي الله عنه يقول: «إنما كان الإنسان لا يقدر على سلوك طريق القوم بغير شيخ لأنها طريق سلوك في الغيب، أو غيب الغيب، والشجرة إذا نبتت بنفسها من غير غارس لا ينتفع أحد بثمرها ولو أورقت بل ربما لا تثمر أبداً، وانظر يا أخي إلى سيد المرسلين على الإطلاق كيف كان جبريل عليه السلام واسطة بينه وبين الله تعالى في الوحي تعرف أن اتخاذ الشيخ واجب لا يستغني المريد عنه».

قال أبو يزيد: «ولقد أخذت طريقي عن شيخي نفساً بنفس» ثم لا يخفى أن السلف الصالح من الصحابة والتابعين وتابع التابعين، إنما لم يكونوا يتقيدون بشيخ واحد بل هم كان أحدهم يأخذ عن مائة شيخ لأنهم رضي الله عنهم كانوا مطهرين من الأدناس والرعونات، فكان كل واحد منهم كاملاً لا يحتاج إلى من يسلكه، فلما كثرت الأمراض واحتاجوا إلى علاجها أمرهم الشيوخ بالتقييد على شيخ واحد لئلا يتبدد حال المريد وتطول عليه الطريق، فاعلم ذلك.

ومن شأنه أن يجعل رأس ماله حذف العلائق الدنيوية فإن من كان له علاقة دنيوية فقلّ أن يفلح، لأن تلك العلاقة تجره إلى وراء، ومن هنا قالوا: «من شرط التائب بعده عن إخوان السوء الذين كانوا أصحابه في المعاصي قبل أن يتوب منها، لأن القرب منهم ربما جره إلى الرجوع إلى فعل ما كان تاب منه».

وكان الإمام القشيري رحمه الله يقول: «يجب على المريد أن يكون عمله دائماً في فراغ القلب من الشواغل، ومن أعظمها الخروج عما بيده من المال، لأنه يميل به عن طريق الاستقامة لضعفه، فليس له أن يمسك المال إلا بعد كماله في الطريق» قال: «وقد أعجز الشيوخ عن أن يسيروا بمريد ومعه علاقة، فسيرهم به ضعيف ربما يفني العمر ولم يصلوا به إلى مقام الكمال الذي يريده».

الفقه في الدين مفتاح الطريق

ومن هنا قالوا للمريد: تفقه في دينك أولاً ثم تعال ادخل الطريق[1] وذلك ليقل التفاته إلى غير الطريق، فربما شرع في مجلس ذكر مثلاً فصار درسه يدعوه إلى مطالعته، والحضور مع الطلبة، وكثرة الجدال، وذلك يفرق عن المعنى المقصود في الطريق، من دوام المراقبة لله تعالى وحده، على أن غالب دقائق العلوم يدخلها حظوظ النفس، ومبنى الطريق كلها على مخالفة النفس والله أعلم.

ومن شأنه أن يكون له شاهد من حاله في كل مقام ادعاه أو تظاهر به، فإن ادعى المحبة لله كان لونه يميل إلى الاصفرار، وإن ادعى الزهد في الدنيا كان مجانباً للأشرار، وإن ادعى الجوع كان جسمه مائلاً إلى الإضمار، قال الشريف الأحمدي: «وقد كنا في مجمع من الفقراء في تربة البهنسا نزور الصالحين، وإذا شاب قد أقبل علينا مضمر، ولونه أصفر وعليه لوائح الصلاح، فأنشد منشد الفقراء لما رآه:

من الشوق مضنًى ما يزال مسقماً ... له عند تغريب النجوم أنين

فصاح الشاب وضرب بيده عموداً فانفلق فحرك شوق كل من كان هناك».

فعلم أن كل فقير[2] لم يعان الجوع والمجاهدة لازمه الجمود وكثافة الحجاب ولو سمع القرآن لا يكاد يتعظ بشيء من زواجره لغلظ حجابه والله أعلم.

---

(١) اشترط رجال التربية الصوفية على مريديهم دائماً الإحاطة بالعلم الديني، لأن التصوف والعلم قرينان لا يفترقان وقد قال ﷺ «من يرد الله به خيراً يفقهه في الدين».

(٢) كلمة فقير: يراد بها الفقير إلى الله سبحانه. وتستعمل صفة للصوفي.

الأخذ بالأحوط

ومن شأنه أن يأخذ بالأحوط في دينه ويخرج من خلاف العلماء إلى وفاقهم ما أمكن، مبادرة على وقوع عباداته صحيحة على جميع المذاهب أو أكثرها، فإن رخص الشريعة إنما جعلت للضعفاء وأصحاب الضرورات والأشغال، وأما القوم فليس لهم شغل إلا مؤاخذة نفوسهم بالعزائم، ولذلك قالوا: إذا انحط الفقير عن درج الحقيقة إلى رخص الشريعة فقد فسخ عهده مع الله تعالى ونقضه. ومن شأنه أن يخفي أحواله التي تكون بينه وبين الله تعالى ما أمكن، حتى يرسخ في مقام مراعاة الله تعالى وحده دون أحد من خلقه، فلا يكاد أحد يأخذ من الفقير الصادق مقاماً، ولا يعرف له حالاً من شدة كتمانه، وقد ورد فقير على سيدي محمد الشربيني، فأنشد بين يديه:

وكم من فتى يرمي مرامي بعيدة ... وهو بين أطناب الخيام مقيم

فصاح الشيخ وقام وقبض على ذلك المنشد وصار يقول: «من أين علمت ذلك؟»

وقد أجمع أهل الطريق على أنه إن لم يكن المريد غير ملاحظ للحق في الباعث على أعماله لا يجيء منه شيء وأجمعوا أيضاً على أن كل مريد أحبّ الظهور أن يطّلع الناس على كمالاته فهو مقطوع به لا سيما إن صار الناس يتبركون به فإنه يهلك بالكلية.

ومن شأنه أن يوطن نفسه على تحمل الشدائد في الطريق، وأنه لا ينصرف عنها إلى غيرها إذا أصابته الأسقام والآلام والفاقات والبلايا المتلاحقة، وأنه لا يترخص عند هجوم الفاقات والضرورات أبداً. وكثيراً ما يحصل للمريد نفرة الخلق منه إذا دخل طريق القوم ويتسلطون على عرضه بالبهتان والزور فيأتيه الشيطان ويقول له: كنت غنياً عن طلب هذه الطريق، وكم سنة لك وأنت في راحة من الناس، ولا يذكرونك إلا بخير، ولا يقعون في إثم بسببك! فيفسخ ذلك المريد عهده ويرجع عن الطريق، فيحصل له التمزيق، فلا يصير يصلح للطريق ولا لغيرها، فليثبت المريد على الطريق ولا يتزلزل بالحق بالمحن فيها فإن ذلك من الشيطان والله أعلم.

ملازمة الشيخ

ومن شأنه إن كان له شيخ أن يلازمه وإن جاهد على أن تكون خلوته تجاه باب الشيخ ليقع بصره عليه كلما خرج فذلك دليل على سعادته، فربما صيرته نظرة من النظرات ذهباً إبريزاً أغنته عن المجاهدة، كما وقع لسيدي يوسف العجمي أنه خرج يوماً من الخلوة فلم يجد أحداً من

الفقراء يقع بصره عليه، فوقع بصره على كلب على باب المسجد، فانقادت إليه جميع الكلاب في مصر وصارت تمشي معه حيث مشى وتقف معه حيث وقف، وصار الناس ينذرون البقر وغيرها للكلاب، فأرسل الشيخ وراء ذلك الكلب، وقال له: اخسأ! فتفرقت عنه الكلاب لوقته، وقال: «لو أن تلك النظرة وقعت على آدمي لصار إماماً يقتدى به».

قالوا: وينبغي له أن لا يسافر قبل أن تقبله الطريق فإن السفر للمريد سم قاتل، وكان الإمام القشيري رحمه الله يقول: «إذا أراد الله بمريد خيراً ثبته في موضع إرادته وأدام عليه طريق مجاهداته وإذا أراد به شراً رده إلى حالته قبل التوبة وأشغله بالدنيا عنه» وكان يقول أيضاً: «الخير كل الخير في العكوف على عتبة الشيخ، وإذا أراد الله بعبد شراً شتته في مطاوح غريبة، قبل أن يتمكن في أمور ربه» وغاية أمره في سياحته حجاب يحصلها خالية عن الآداب المطلوب فيها أو زيادة مواضع يرتحل إليها أو لقاء أشياخ من غير أن يتقيد بأحد منهم بالتربية، فمثل هذا لا يكلف المشي على مراسم الطريق لأن الله تعالى لم يرد أن يرقيه إلى مقامات الرجال إذ لو أراد له ذلك لقيده على خدمة شيخ يبايعه على السمع والطاعة في المبسط والمكره والله أعلم.

معالجة النفس

ومن شأنه مكايدة خواطره ومعالجة أخلاقه ونفي الغفلة عن قلبه بمداومة الذكر، إما لكثرة تلاوة القرآن والصلاة، فلا يعول المريد الصادق عليه لأن القرآن إنما هو ورد الكمال، وكذلك الصلاة، وأما المريد فإنما عمله الدائم في تنظيف ظاهره وباطنه عن الصفات التي تمنعه من دخول حضرة الله عز وجل كالغضب وعز النفس والكبر والعجب والحسد ونحو ذلك، فإذا تطهر المريد من هذه الصفات فهناك يصلح له تلاوة القرآن ومجالسة الحق جل وعلا، والوقوف بين يديه في الصلاة وغيرها، هذا ما درج عليه السلف الصالح.

ذكر الله جلاء القلب

سمعت سيدي علي المرصفي رحمه الله يقول: قد عجز الشيوخ فلم يجدوا للمريد دواءً أسرع في جلاء قلبه من مداومة ذكر الله عز وجل فحكم الذاكر كمن يجلي النحاس المصدىء بالحصا وحكم غير الذاكر من سائر العبادات كمن يجلي النحاس بالصابون، فهو وإن كان ساعياً في الجلاء بالصابون لكن يحتاج ذلك إلى طول زمن وقد أنشد سيدي عمر في كلمة التوحيد:

تهذب أخلاق الندامى فيهتدي ... بها لطريق العزم من لا له عزم
ويكرم من لم يعرف الجود كفه ... ويحلم عند الغيظ من لا له حلم

إلى آخر ما قال والله أعلم. ومن شأنه إذا كان مقيماً في زاوية أو سوق أن يجعل رأس ماله الاحتمال والصفح عن كل من أتى إليه بمكروه بطيبة نفس، ويتلقى كل ما يستقبله من أهل الزاوية أو السوق وغيرهم بالرضى والتسليم، فإن لم يستطع فبالصبر لا أنزل من ذلك، فإن لم يصبر على جفاء الإخوان لا يصلح للطريق فليخرج إلى العامّة ويترك طريق القوم.

وسمعت سيدي علي المرصفي رحمه الله يقول: «كان أبو يزيد لا يقيم إلا في موضع ينكر الناس عليه فيه ويؤذونه ويحتقرونه ليروض نفسه بذلك وكلما عظموه وشكروه كلما هرب من مخالطتهم» ولعل ذلك كان في بدايته رضي الله عنه.

ومن شأنه إذا لم يجد أحداً يتأدب به في بلده من الشيوخ يهاجر من بلده إلى من هو منصوب لإرشاد المريدين في ذلك الزمان ولو كان بينه وبينه مسيرة سنة وأكثر لا سيما إن كان مبتلياً بحب حدثٍ أو امرأة أو جاه، فإنه يجب عليه السفر جزماً ليخلصه من تلك الورطة فإن كل ما يتوصل به إلى الواجب فهو واجب.

هل يتخذ المريد له شيخاً آخر بعد وفاة شيخه الأول؟

ومن الواجب عليه إذا مات شيخه أن يتخذ له شيخاً يربيه زيادة على ما رباه الشيخ الأول، فإن الطريق لا قرار لها ولما مات الشيخ محمد السروي شيخ شيخي الشيخ محمد الشناوي وكان شيخه قد أذن له في إرشاد المريدين وتلقينهم اجتمع بسيدي علي المرصفي وتلقن عليه وقال له سيدي علي:

أنت بحمد الله قد بلغت مبلغ الرجال فلا تحتاج إلى تلقين، فقال: لا أحبّ أن أمكث ساعة واحدة بلا أستاذ مع أنني من جملة من كان تلقن عليه وأذن لي في الإرشاد ثم قال لي: «يا ولدي تلقن أنت الآخر على شيخ شيخك ليكون أنا وإياك من جملة تلامذة علي» ففعلت، وهذا الأمر لا يقع إلا من الصادقين في الطريق أما غير الصادقين فلا تسمح نفوسهم بعد الإذن لهم من شيوخهم أن يتلقنوا على أحد وذلك من أكبر علامات الخذلان وهو من أول دليل على أن شيخهم غشهم في الإذن لهم، فإن الفقير الذي صح الإذن له لا يكون له نفس ولا يوافقها في حظ فهو يربي الناس ويرشدهم ويرى نفسه دونهم مع رضى الله عنه.

امتحان المريد

ومن شأنه إذا سافر إلى شيخ ليأخذ عنه الطريق فقابله الشيخ بالجفاء والتعبيس في وجهه أن يصبر ولا يتزلزل، بل يجلس مطروح النفس على بابه حتى يرحمه شيخه ولو مكث على ذلك الجفاء سنة وأكثر لا يبرح عنه، فإن الطريق عزيزة عند أهلها لا يجوز لهم الترخص فيها لكل من

ورد عليهم، وإنما يمتحنونه السنة وأكثر قبل أن يجيبوه للأخذ عنهم وقالوا: كل مريد لم يمتحنه شيخه قبل الأخذ لا يفلح في الغالب لأنه يدخل الطريق بغير أدب ولا تعظيم لها فرفضته الطريق ولو على طول بخلاف من دخلها مع التعظيم وشدة الشوق، وفي القرآن «يا أيها الذين آمنوا إذا جاءكم المؤمنات مهاجرات فامتحنوهن الله أعلم بإيمانهن» الآية. وحكم المريد إذا جاء مهاجراً إلى أن يطلب الطريق كذلك بجامع أن كلاً منهما دلالة على الهدى وقد أخبر شيخنا الشيخ محمد الشناوي الأحمدي رحمه الله تعالى: «أنه لما طلب الطريق سافر من بلاد الغربية إلى فارس كور ليأخذ الطريق عن الشيخ أبي الحمايل فلم يلتفت إليه الشيخ ولا بشّ في وجهه فلما رأى الشيخ شدة رغبته أدناه وقربه، وقال له: يا محمد أنا أحب الخير لك ولغيرك، وإنما أردت امتحانك بما وقع لتدخل الطريق بالتعظيم لها ولأهلها»

وكان شيخنا يقول: «والله لو زاد الشيخ في الجفاء سنين عديدة لصبرت له ولم أبرح عن بابه».

وكان الشيخ أبو الحمايل رحمه الله يقول: «لقنت الذكر لنحو عشرة آلاف نفس فما عرفني وصح معي غير ابن الشناوي» فانظر يا أخي فعل الصادقين واقتد بهم والله يتولى هداك.

ومن شأنه أن لا يلتفت بقلبه إلى شيء خرج عنه من أمور الدنيا إذا دخل في الطريق بل الواجب عليه أن يربط الدنيا كلها في صرة ويرميها في بحر الإياس وليتساوى عنده الذهب والتراب في عدم الترجيح والميل فيكون الذهب عنده كالتراب، وذلك حتى لا ينافس أهل الدنيا ولا يزاحمهم على تلك الجيفة فمن نافسهم وزاحمهم نجسته كلاب الدنيا بعضه وخربشته والهبهبة عليه وأشغلوا فكره وكدروا وقته فانقطع عن السير.

وكان أبو القاسم القشيري رحمه الله يقول: «كل مريد بقي في قلبه ميل لشيء من عرض الدنيا وشهواتها فاسم الإرادة له مجاز لا حقيقة». وقبيح بالمريد أن يخرج من رأس فتنته في دينه ثم يرجع إليها بعد ذلك ويكون أسير دينار ودرهم أو دار ووظيفة بل الواجب على المريد أن يكون وجود الدنيا وعدمها عنده سواء وذلك حتى لا يضايق أحداً عليها ولو مجوسياً؛ وإيضاح ذلك أن رزق الله تعالى الذي قسمه لعبده لا يعرفه عبده إلا بأكله أو شربه أو لبسه مثلاً وأما قبل ذلك فلا علم له به حتى يزاحم عليه، وبتقدير علمه بأنه رزقه فلا ينبغي له منازعة أحد فيه لأنه لا يقدر أحد أن يأخذه منه ولا يأكل منه لقمة، وأيضاً فأهل المنازعة على الدنيا إنما هو من شدة الحرص، فصاحبه يحرص أن يكون كل شيء له دون غيره ولا ينبغي ذلك من فقير إنما يقع ذلك من أبناء الدنيا فإن أحدهم كالأعمى الذي يصدم الحيطان فكل شيء أحس به قبض عليه ومن كان كذلك فهو لا يصلح للطريق، فإياك يا أخي والالتفات لشيء من الدنيا التي تشغلك

عن الله، ثم إياك إن طلبت أن تكون من القوم والله يتولى هداك.

الأشياء التي تقطع المريد

ومن شأنه أن يغض بصره عن رؤية الصور المستحسنة ما أمكن فإن النظر إليها كالسهم الذي يصيبه في قلبه فيقتله لا سيما إن نظر بشهوة فإنه كالسهم المسموم الذي يذيب جسم الإنسان في لمحة، وكان أبو القاسم القشيري رحمه الله يقول: «من أكبر القواطع على المريد مصاحبة الأحداث والنسوان والمساكنة إليهم بميل القلب ومن ابتلاه الله بشيء من ذلك فبإجماع القوم ذلك عبد أهانه الله وخذله بل عن مصالح نفسه شغله، ولو بألف ألف كرامة أهّله، ولو لم يكن له إلا أنه شغل قلبه بمخلوق فأدخل فيه الشيطان وحرم دخول محبّة الحق قلبه، قال: وأقبح من ذلك كله تهوين مثل ذلك على القلب» وهذا الواسطي رحمه الله يقول: «إذا أراد الله هوان عبد ألقاه إلى هؤلاء الأنتان والجيف» يريد بهم الشباب المرد الذين تميل النفوس الغوية إليهم.

وكان فتح الموصلي رحمه الله يقول: «صحبت ثلاثين شيخاً كانوا يعدون من الأبدال، وكلهم أوصوني عند فراقي إياهم وقالوا لي: اتق معاشرة الأحداث» قال القشيري رحمه الله «ومن ارتقى عن حالة الفسق من المريدين، وأشار إلى أن ذلك من باب محبة الأرواح لا الأشباح، قلنا له: هذا من دسائس النفوس والشياطين فربما خيل الشيطان إلى أحدهم أن ذلك لا يضر وأن كل جميل في الوجود إنما جماله من جمال الحق تعالى، وقلنا له: إن الذي ادعيت أنك تشهد جماله هو الذي حرّم عليك ذلك الشهود».

وقد سئل سيدي الشيخ علي الموازيني الشاذلي عن النظر إلى الأمرد الجميل هل يجوز ذلك للسالك فقال:

«ما دام عند الإنسان الفرق بين الصّور الجميلة وغير الجميلة فهو في محو الطبيعة والشهوة فلا يجوز له النظر إلى الصور الجميلة المحرمة شرعاً».

فإذا صار يشهد جمال الخنفساء والضفدعة كجمال أحسن الصور الإنسانية على حد سواء فلا يمنع من رؤية ما ذكر لأنه حينئذ ذهب تمييزه وصار مستغرقاً مع الخالق لا مع المخلوق. وهذا أمر عزيز الوجود في غالب مريدي هذا الزمان فالحذر أولى بكل عاقل.

وسمعت سيدي محمد الشناوي يقول: «لا ينبغي لمريد أن يجالس الأمرد الجميل ولا يسكن هو وإياه في خلوة واحدة ما أمكن فليحظر العاقل من مجالسة الأحداث إلا في حلقة الذكر أو الدرس بحضرة الشيخ أو الإخوان الصالحين مثلاً لكن مع غض البصر» قال:

«وقد بلغنا أن الفقراء الماضين كان أحدهم لا يعرف بطلوع لحية الأمرد إلا إن أعلمه الناس بذلك» ووقع ذلك لسيدي محمد بن عنان مع الشيخ مازن بذلك وقال: «خدمت الشيخ نحو عشر سنين فطلعت لحيتي وكملت ولم يشعر بذلك حتى أخبره الناس بذلك فنظر إلى وجهي من ذلك الوقت».

هل يصح إعطاء العهد للنساء؟

قد صنف سيدي محمد الغمري كتاباً سماه «العنوان في تحريم معاشرة الشباب والنسوان» وحط فيه على المطاوعة أشد الحط وكذلك على الفقراء الأحمدية الذين يأخذون العهد على النسوان ويصير أحدهم يختلي بهن في غيبة أزواجهن وتقول له: يا أبي ويقول لها: يا بنتي وقال: «إن ذلك خارج عن قواعد الشريعة، وإن من استحل ذلك أخطأ» واستدل بقوله تعالى للصحابة في حق زوجات النبي ﷺ: «وإذا سألتموهن متاعاً فاسألوهن من وراء حجاب ذلكم أطهر لقلوبكم وقلوبهنّ» وقال: «كيف يدعي جاهل وجاهلة ونفوسهما عافة على محبة الحرام كالذّباب على العسل أن مثل ذلك لا يضره ويضر الصحابة!» فليحذر الفقير من ذلك والحمد لله رب العالمين.

ومن شأنه أن لا يقنع بحكايات أهل الطريق دون منازلة مقاماتهم ويصير يحكي المقامات حتى كأنه نزلها، فإن ذلك من أكبر القواطع على المريد وهو من النفاق والخيانة في الطريق، ثم بتقدير أنه يحفظ مثل رسالة القشيري، أو عوارف المعارف عن ظهر قلب، فهو صاحب علم لا صاحب سلوك فلا ينتج على يديه أحد إذا تصدر للمشيخة، وهذا الأمر قد وقع فيه جماعة كثيرة من أهل عصرنا فالتبس على غالب الناس أمرهم وعدوهم من أهل الطريق لجهل الناس بمراتب أهل الطريق، وأعرف شخصاً جاءني من مدة يطلب الطريق إلى الله تعالى، فرددته فقال استخرت الله تعالى، وما انشرح صدري إلا أني آخذ عنك الطريق، فلم أقبله لعلمي بأنه لا فتوح له على يدي بقرائن وعلامات أعرفها، ففارقني وادعى أن بعض الشيوخ الماضين جاءه في المنام ولقنه وأذن له أن يسلك الناس، فجمع له بعض العوام وجلس مجلس الشيوخ الصادقين، وصار بعض من يجتمع به يقول: ما في البلد شيخ إلا شيخنا! مع أنه لم يذق من مقامات الطريق شيئاً، وقد أرشدته مرات إلى أنه لم يأخذ الطريق عن أحد فلم يفعل، فالله يغفر له . . . آمين.

متى يتصدر المريد للإرشاد؟

من شأنه أن لا يتصدر لإلقاء درس في علم الظاهر والباطن حتى يشهد به شيخه

بالإخلاص فيه، وكذلك لا يجعل له مريد، فلو أن كل مريد تصدر لإلقاء درس أو لتعليم الطريق قبل خمود نار بشريته والإذن له من شيخه، فقد قطع به وضل وأضل، وحجبت عنه الحقائق وعدم الخلق الانتفاع به.

وذلك لأن محبة الجاه والصيت الحسن قد أضلته فصارت مرآته منطمسة النور، فلا يعرف الحق من الباطل، ولا يدرك أحوال الطريق بذاتها، ومثاله مثال من جلس في بيت مظلم، وأخذ يتفكر فيما فيه من الأمتعة والهيئات فإنه بيقين يعجز عن إدراك كنهه وحقيقته، فإذا دخل له مصباح أدرك جميع ما فيه من غير تفكر. فعلم أن كل شيخ جعل مريده واعظاً أو إماماً أو مدرساً فقد غشه إلا أن يكون له حال قاهرة تحفظ مريده من الآفات، وهذا عزيز في فقراء هذا الزمان. وربما رأى الشيخ أن ذلك المريد لا يجيء منه شيء في الطريق فتركه وما يهواه من المباحات أدباً مع الله الذي لم يقسم له أن يكون من أهل الطريق لا غشاً لذلك المريد والله أعلم.

بين الشريعة والحقيقة

ومن شأنه أن يحافظ على آداب الشريعة والمشي على ظاهرها ما أمكن فإن الترقي كله في امتثال أمر الشارع، وأما علم الحقيقة فحكمه حكم من يقول: السماء فوقنا والأرض تحتنا والنار حارة والثلج بارد، ولكن يجب عليه أن لا يدع الشريعة تعترض عليه في شيء من أحواله، وهذا أمر قد أغفله غالب من شم رائحة التوحيد من أهل هذا الزمان، فيصير يتعدى حدود الله في مأكله وملبسه وكلامه وفعله ويقول: إن الله تعالى قد خلق ذلك لي! وبعضهم ترك التوبة من سائر الذنوب وقال: ليس لي فعل حتى أتوب منه فهلك مع الهالكين وهو لا يشعر. وبعضهم صار يأكل حراماً ويفطر في بيوت المكاسين في مثل شهر رمضان ويقول: الكل لله تعالى ليس لأحد معه ملك وأنا عبده، والعبد يأكل من مال سيده. وهذا كله زندقة لرفضه الشرائع، ولو أنه كان يؤمن بها لما تجرأ على ذلك.

الولائم مهلكة

وكان سيدي إبراهيم المتولي لا يذهب بأحد من جماعته قط إلى وليمة عند أحد من الولاة، ويقول: ارجعوا لا تهلكوا مثلي، وكذلك أدركت جماعة من شيوخ الطريق كانوا يتورعون عن الأكل من طعام كل متهور في مكسه، وكانوا ينكرون على من يرونه يأكل من مثل ذلك، لا سيما سيدي الشيخ علي المرصفي رضي الله عنه، كان يرسل يزجر كل فقير أكل عند أمير، وكان للطريق وأهلها حرمة في زمنه رضي الله عنه، فلما مات انحلت عرى الطريق، وتهدمت قواعدها في مصر وقراها، وصار بعض المشايخ ومن نسب إلى العلم يجلسون على

موائد الظلمة المكاسين والكُشَّاف ومشايخ العرب وأعوانهم، وبعضهم سداه ولحمته من طعامهم ولباسهم، وكذلك أولاده وعياله، وبعضهم صار يسأل هؤلاء الظلمة، فإذا لم يعطوه ما طلب منهم غضب عليهم، ومزق أعراضهم في المجالس، ولو أن هؤلاء شموا رائحة من الطريق لم يستحل أحد منهم مقدار سمسمة من مال هؤلاء في أوقات الضرورات، فضلاً عن أوقات الاختيار ووجود السعة في الرزق من جوالي أو سموح أو زراعة أو غير ذلك. وقد رأيت من عمل له عرساً في زاوية، وصار يرسل قاصده للولاة فيساعدونه بالعسل والأرز والبسلة، ومن لم يعطه شيئاً يغضب عليه مع أنه لابس عمامة صوف، فلا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم.

تربية النفس

ومن شأنه مجاهدة نفسه دائماً في ترك الشهوات، فقد قالوا: من وافق شهوته عُدم صفوته، وقد أوحى الله تعالى إلى داود عليه الصلاة والسلام: «يا داود حذر وأنذر قومك أكل الشهوات، فإن قلوب أهل الشهوات عني محجوبة» يعني من جهتهم، اللهم إلا أن يجاهد العبد نفسه إلى الغاية، فإن الحق تعالى ربما تفضل عليه بعدم الحجاب عنه مع أكل الشهوات المباحة نعيماً معجلاً مما له في الآخرة، من غير نقص من نعيمه الأخروي، صدقة من صدقات الحق تعالى على العبد. وقد عدوا من فسق العارفين تبسطهم في الدنيا وشهواتها حال كمالهم، لأن بذلك تضل أتباعهم ويكون وزرهم عليهم، والله أعلم.

عاقبة نقض العهد

ومن شأنه حفظ عهده مع الله تعالى على ملازمة التوبة من كل ذنب، فإن نقض العهد من أعظم الذنوب وهو معدود من أنواع الردة عن بعض دينه، فيوشك أن يرتد عن دينه كله؛ وقد ورد «المعاصي بريد الكفر» أي مقدمته وفي الحديث «أن رسول الله ﷺ يرى أقواماً من أمته يوم القيامة قد أخذ بهم ذات الشمال فيقول: يارب أمتي! فيقال: إنك لا تدري ما أحدثوا بعدك، إنهم ارتدوا على أدبارهم القهقرى، فيقول ﷺ: سحقاً سحقاً» قال بعض العلماء: وهؤلاء لم يرتدوا عن أصل الدين، وإنما ارتدوا عن فعل شيء من فروعه، بدليل أنه ﷺ يشفع فيهم إذا سكن الغضب الإلهي وموافقة له.

الخير في الاتباع والشر في الابتداع

قال الإمام أبو القاسم القشيري رحمه الله: «لا ينبغي لمريد أن يعاهد الله تعالى على فعل شيء مما لم يكلفه الله تعالى به، فإن في مكروهات الشريعة ما يغني عن ذلك».

ثم إنه قد لا يعانُ على ما عاهد ربه عليه من ذلك، لعدم دخوله تحت شرعه الأصلي، فإنه تعالى ما ضمن المعونة إلا لمن هو تحت أمره المشروع على ألسنة رسله، وفي القرآن العظيم «رهبانية ابتدعوها ما كتبناها عليهم إلا ابتغاء رضوان الله فما رعوها حق رعايتها» فالخير كله في قدم الاتّباع والشر في الابتداع.

ومن شأنه أن يكون قصير الأمل وذلك حتى يجدّ في الطاعات ويجتنب المخالفات، فإن من كان طويل الأمل لازمه التسويف بالخيرات والوقوع في المخالفات، وتقول له نفسه: إذا قرب أجلك فتب إلى الله تعالى عن جميع المخالفات السابقة وكأنك لم تذنب قط، فإن التائب من الذنب كمن لا ذنب له! وهذا من أكبر خداع النفس، والواقع فيه أكثر من الكثير.

ومن هنا قالوا: إن الفقير ابن وقته، لا نظر له إلى ماض، ولا آت، لأن نظره إليهما تفويت للوقت الحاصل، وقد قالوا: كل من نظر إلى عمله بالتسويف، خسر عمره وفاته الزرع، فخسر الدنيا والآخرة والله غفور رحيم.

مقام التجرد

ومن شأنه أن لا يكون له التفات إلى معلوم وظيفة، أو خراج رزق، أو أجرة بيت، ولا يعلق خاطره بشيء من ذلك، ويجب عليه في الطريق مجاهدة نفسه، حتى يصير لا التفات له إلى شيء دون الله تعالى. ومن لا يجاهد نفسه كذلك فلا يجيء منه شيء في الطريق، إذ لا التفات إلى مضاد للرقى.

وفي كلام سيدي أحمد الرفاعي رحمه الله: «متلفت لا يصل، ومتسلل لا يفلح، ومن ير في نفسه النقصان، فكل أوقاته نقصان».

وكان أبو القاسم القشيري رحمه الله يقول: «ظلمة الركون إلى المعلوم تطفيء نور الوقت».

وسمعت سيدي علي المرصفي رحمه الله يقول: «من جلس بين فقراء الزاوية، والتفت إلى معلوم دنيوي، وقف عن السير، وأفسد ضعفاء فقراء الزاوية، وكان عليه وزر ذلك، فيجب عليه الخروج من الزاوية، فإن وقفها أو ما يهدى إليها إنما هو بالإصالة لمن ترك الدنيا، واشتغل بعبادة الله عز وجل. فلمحبّة الواقف أو المهدي في الله تعالى وقف أو أهدى، حتى لا يلتفت إلى الفقير لغير ما هو بصدده، وكل فقير أكل من ذلك مع عدم اشتغاله بالله، فقد أكل حراماً بشرط الواقف فإنه لو رآه غير مشتغل بالله لم يوقف عليه شيئاً، بل كان يقول له: اخرج واحترف مع السوقة والله أعلم.

شرف الهمة

ومن شأنه أن لا يقبل وقفاً من امرأة، ولا شيخ قد طعن في السن، من أرباب الصنايع، ولو أتوه به من غير سؤال، لأن من شرط الطريق أن لا يصح لأحد دخولها إلا إن كان شريف الهمّة، ومن رضي أن يكون تحت منة امرأة أو عاجز عن الكسب، فهو دنيء الهمّة، ومرتبته دون مرتبة تلك المرأة، أو العاجز، فهو بعيد عن الطريق.

وسمعت سيدي علي المرصفي رحمه الله يقول: «إذا رأيتم المريد يقرأ على قبور الموتى، ويأخذ من النساء معلوماً، فانفضوا أيديكم منه، ومن ترخص وعمل برخصة الشريعة في ذلك، من غير حاجة، فهو من أبناء الدنيا، وأبناء الدنيا لا يفلحون في طريق الآخرة». قال: وليس لشيخ أن يأخذ على هذا المريد عهداً، ولا أن يلقنه ذكراً، فإن فعل ذلك فهو كالاستهزاء بالطريق، قال القشيري رحمه الله: «وقد تعددت وصايا جميع الأشياخ في سائر الأقطار إلى مريديهم أن لا يأخذوا وقفاً من النسوان، فإن في ذلك من المفاسد ما لا يخفى، أقل ما في ذلك، أن المريد يصير يميل إلى من أحسن إليه بحكم الطبع والشهوة، فيتلف قلبه بالكلية، والله غفور رحيم.

النهي عن مجالسة الغافلين

ومن شأنه التباعد عن مجالسة أبناء الدنيا من التجار والمباشرين ونحوهم، فإن مجالستهم سم قاتل للمريد، لضعفه ولكثرة غفلتهم عن الله تعالى، واشتغالهم بأمور الدنيا، من مطعم وملبس ومنكح وغير ذلك، فيسرق طبع المريد منهم محبة العلائق الدنيوية، والمريد إنما عمله على حذف العلائق، وإن قدر أنهم ينتفعون بالفقير، فهو نقص له، قال تعالى: «ولا تطع من أغفلنا قلبه عن ذكرنا واتبع هواه وكان أمره فرطا».

وما رأينا أحداً من المريدين خالط أبناء الدنيا إلا مات قلبه، وعدم الميل إلى مجالس الذكر والخير، وسهر الليالي، ولم يصر له داعية إلى مثل ذلك، وكان سيدي محمد الغمري رضي الله عنه إذا رأى مريداً يكثر الجلوس على باب المسجد مع أبناء الدنيا، يخرجه من زاويته، ويقول: «إنما جعلت الزاوية للعبادة وكفّ البصر عن رؤية الشهوات، فمن جلس على باب الزاوية فلا فرق بينه وبين الجالس في السوق» والله إني لأتأثر على الفقير إذا رأيته قد تصرّمت حباله عن مجالس الخير، أكثر مما يتأثر هو على فوات ذلك، وأتكدر من جلوس الفقير على باب الزاوية لعلمي بأن ذلك يشتت القلب ويميته فالله يغفر لنا ولجميع من لم يقبل من الإخوان نصحنا، إنه غفور رحيم.

المريد الطالب للعلم

ومن شأنه إذا كان مجاوراً، أن لا يطلب التخصيص عن إخوانه بشيء من الخبز والعسل مثلاً، ولو قُدِّر أن النقيب أعطاه شيئاً زائداً من وراء إخوانه، فمن الأدب رده، حتى لا يتميز عن إخوانه، فيدخل في كرامة الحق تعالى له، فعُلم من باب أولى أنه لا يجوز له أن يشارك الفقراء في الأخذ من الخبز والعسل مثلاً وعنده شيء من ذلك استرباحاً بل يتخير، إما أن لا يتخصص من ورائهم بشيء واما أن يأكل ما تخصص به حتى يفرغ، فإذا فرغ شارك الفقراء بعد ذلك، فكن يا أخي شريف النفس، عالي الهمة، فإن طلب التخصيص يدل على خسة الأصل، ودناءة الهمة، والله أعلم.

آفات القلوب

ومن شأنه التباعد عن فعل كل شيء يميت قلبه ككثرة اللغو والغفلة فإن ذلك مجرب لموت القلب، وليس عمل الفقير إلا بتحصيل حياة قلبه عن كل شيء يشغله عن الله تعالى، لأن قلب الإنسان كقلب الطاحون فإذا فسد فسدت وإذا كان لها قلبان امتنعت عن الدوران.

دعاء يقال قبل صلاة الصبح

وقد رتبت للفقراء في الزاوية أن يقولوا كل يوم قبل صلاة الصبح أربعين مرة: يا حي يا قيوم لا إله إلا أنت؛ لما بلغنا أن أبا محمد الكتاني أحد مشايخ الطريق، رأى النبي ﷺ في المنام فقال: يا رسول الله، ادع الله لي أن لا يميت قلبي، فقال: يا أبا محمد قل كل يوم أربعين مرة: «يا حي يا قيوم لا إله إلا أنت، يحيى قلبك».

لا ذكر بعد المشاهدة

ومن شأنه إذا افتتح مجلس الذكر وحده أن لا يسكت حتى يحصل له الغَيْبةُ عن الأكوان كلها، فإن الذكر إنما شرع للحضور مع الحق جل وعلا، وما دام المريد يشهد شيئاً من الأكوان فهو لم يدخل حضرة الحق ثم إذا دخل الحضرة، وحضر قلبه مع الحق تعالى، فليسكت حينئذ لأنه لا معنى للذكر اللفظي مع شهود الحق تعالى، بل لو أراد الحاضر أن يذكر الله بلسانه لم يقدر على النطق، لأنها حضرة هيبة وجلال، وبهت وخرس، ومن هنا رمز بعضهم إلى ذلك بقوله:

ألا بذكر الله تزداد الذنوب ... وتنطمس البصائر والقلوب[1]

---

(١) المراد بالذكر هنا هو الذكر في مقام الحضور والمشاهدة لأنه في هذه الحالة يعتبره الصوفية من الذنوب.

أي لأن من أدب أهل الحضرة الصمت عن العبارات باللسان فمن لم يصمت وقع في سوء الأدب، وفي مواقف البصري يقول الله عز وجل: «إذا لم ترن فالزم اسمي فإذا رأيتني فاصمت، لأني ما شرعت لك أن تذكر اسمي إلا وسيلة للحضور معي، فإن اسمي لا يفارقني» وقد سمعت سيدي علي المرصفي رحمه الله يقول: «لا يفتح على المريد بشيء من المواهب، وهو يستحضر في ذهنه شيئاً من الكون، إذ الفتح لا يكون إلا لمن شهد الحق تعالى بقلبه، وغاب عما سواه»

فعلم أنه لا ينبغي للمريد قطع مجلس الذكر، قبل أن تحصل له الغيبة عن الأكوان، لأن من قطعه قبل هذه الغيبة، فكأنه لم يذكر الله شيئاً من حيث الثمرة التي هي الرقي، وإن كتب له بذلك حسنات، ومن هنا قال الشبلي رحمه الله: «من ذكر الله تعالى على الحقيقة نسي في جنبه كل شيء» وكان الجنيد يقول: «من شهد الخلق لم ير الحق، ومن شهد الحق لم ير الخلق، إلا أن يكون من الكُمّل».

وكان الزفي رحمه الله يقول: «كل ذكر لا يمتد زمانه فهو كالطعام الذي لا يسد جوعة الأكل» وكان يقول: «من الأدب أن لا يسكت الذاكر ما دام يستلذ بالذكر، فإذا حصل له ملل، فمن الأدب السكوت» كما أنه يكره له بعد الشبع أن يأكل، وبعد الشبع المذهب للخشوع أن يصلي إلا بعد هضم ذلك، بكثرة الذكر، وذلك لأن جوارحه تصير عاصية عن كمال الإقبال على الله عز وجل، فهي كعبادة المكره على حد سواء، فكما لا يقبل إسلام الذمي مكرهاً، كذلك لا تقبل عبادة العابد مكرهاً

هل ينوع المريد أوراده؟

ومن هنا نوع الشارع ﷺ، الأوراد للعبد، فمن ملّ عن ورد انتقل إلى ورد آخر، ولو مفضولاً، ولو لم يكن عند العبد ملل، لم ينوع له الأوراد، بل كان يأمره بذكر واحد على الدوام كالملائكة، فافهم.

متى تطوى مقامات الطريق للمريد؟

وكان سيدي علي المرصفي رحمه الله يقول: «إذا ذكر المريد ربه بشدة وعزم، طويت له مقامات الطريق بسرعة من غير بطء، فربما قطع في ساعة ما لا يقطعه غيره في شهر وأكثر» وكان يقول: «السالك من طريق الذكر، كالطائر المُجِدّ إلى حضرات القرب، والسالك من غير طريق

الذكر كالزَّمِن[1] الذي يزحف تارة ويسكن أخرى مع بعد المقصد، فربما قطع مثل هذا عمره كله ولم يصل إلى مقصود» وكان الجنيد رضي الله عنه إذا سأله فقير أن يدعو له يقول: «أسأل الله أن يدلك عليه يا أخي من أقرب الطرق» وذلك لينطفىء عنه نيران البعد والجفا، ويتملى بشهود حضرة الحق جل وعلا، ولو قبل موته بلحظة. وكان سيدي علي المرصفي رحمه الله يقول: «من أدب الجماعة إذا كانوا يذكرون مع الشيخ أن لا يتعدوا إشارته، فإذا أشار عليهم بالسكوت، فمن الأدب أن لا يتمادى أحدهم في الذكر ما دام إحساسه باقياً، فإن تمادى مع عدم الغَيبة عن الحاضرين، فذكره نفاق مغموس بسوء أدب، فإن الشيخ لا يقول لهم اسكتوا إلا بعد استئذان الحق تعالى في ذلك على الوجه المعروف عند القوم، ومخالفة إذن الحق خروج عن الأدب، موجبة للعطب» والله أعلم.

تجنب المظاهر

ومن شأنه أن لا يكون له التفات قط إلى الاعتناء بظاهره من ملبس وغيره إلا بقدر الضرورة، فمن نظر إلى ظاهره انقطع عن السير.

وقد رأى سيدي أحمد بن الرفاعي رحمه الله فقيراً هندم ثوبه، وصف طباق عمامته على المناسب، فقال: يا ولدي، هذا خروج عن طريق الإرادة، ومن كلامهم:

إذا رأيتم المريد في زيه لبق فاعلموا أنه عن الاستقامة زلق

ويستحب أن يكون قميصه لا ينزل عن كعبه، وأن يكون نظيفاً واسع الأكمام وسطاً، وأن يكون مُوَطًّا أو مصبوغاً، كله أخضر أو أزرق أو أسود أو نحوها، ولا ينبغي له لبس الثوب الأبيض إلا يوم الجمعة، لا سيما إن كان يخدم نفسه، أو غيره، في البيت والزاوية مثلاً، وذلك لأن المريد يجب عليه أن يقلل من علائق الدنيا، ومن الالتفات إليها، وإلى التزين بملابسها، والأبيض يحوجه كل قليل إلى غسله بالصابون ونحوه، وذلك يحتاج إلى دراهم يشتريه بها، والدراهم تحتاج إلى الحرف والصنائع، أو سؤال الناس بحاله، أو بمقاله، فيأكل بدينه، فكأنما عبد الله تعالى بعبادة أكل بها ولبس، لأنه لولا العبادة التي يراه الناس عليها ما أكرموه، وكل ذلك يقطع عن السير ويفتح باب التوجه إلى الدنيا.

وبالجملة فكل شيء تهواه نفس المريد في الدنيا يقطعه عن الله عز وجل. فيجب على المريد الصبر على وسخ الثياب وتخريقها حتى يزول وسخ قلبه، فإذا زال فهناك يؤمر بنظافة

---

(١) الزمن: الشيخ الكبير الضعيف المقعد.

الثياب وتبييضها، ليشاكل بذلك باطنه من باب التحدث بالنعمة، لا لغرض نفسانيٍّ، ولبس الأصواف الرفيعة وغيرها لا يفلح في طريق القوم، ولو كان شيخه من أكبر الأولياء.

ووالله لقد لبست في بداية أمري المرقعات، وشراميط الكيمان، وتعمَّمت بالحبال وجلود قصاصات النعال الجديدة، وكان الناس يأتوني بالثياب الفاخرة والأطعمة اللذيذة، فأردها خوفاً من أن تشغلني عن الله عز وجل، فكيف بمريد يجتهد في تحصيلها؟

وقد بلغنا عن الشبلي رحمه الله أنه كان إذا أعجبه شيء من ثيابه، يذهب إلى التُّنور فيحرقه، فيقال له: هلا تصدقت به! فيقول: «ما أشغل قلبي فهو كذلك يشغل قلب غيري» وأجاب اليافعي رحمه الله عن مثل ذلك، بأنه من باب ارتكاب أخف المفسدتين عند القوم. فإن زوال الدنيا كلها أهون عندهم من غفلتهم عن الله تعالى، كما لو غص بلقمة، ولم يجد ما يسيغها به، فله أن يسيغها بخمر صيانة للجسم عن الهلاك، فكذلك الحكم فيمن خاف على هلاك دينه يقدمه على هلاك دنياه.

قال الأشياخ: وإن كان ولا بد من الملابس الحسنة، فليلبس الوسط لا رقيقاً يصف البشرة، ولا غليظاً كالخيش، وكذلك لا ينبغي له أن يلبس ثياب أهل الرعونات، كالثياب التي فيها خطوط صفراء أو حمراء أو خضراء عملاً بالعرف في ذلك، وقالوا: إن مثلها لا يوجد من مال حلال، والحرام يوقف المريد عن السير؛ وإنما لبس ﷺ البرود التي فيها خطوط صفر وحمر بياناً للجواز، وكانت من حلال بإجماع.

قالوا: والحكمة في موافقة المريد للفقراء في اللباس، طلب التشبه بهم، فإنه كلما تشبه بهم قوي في الطريق، وقالوا من تشبه بهم في الأحوال الظاهرة، يرجى له حصول التشبه بهم في الأحوال الباطنة، حتى إن المريد الصادق ربما يسرق جميع صفات القوم في مدة يسيرة.

قال الشيخ نجم الدين البكري: «وكان السلف الصالح يستحبون أن يكون قميص أحدهم ذا جيب، ويكرهون السروال الواسع العباب، بحيث لو شمره لطلع إلى الفخذ وجاوز الركبة، وكذلك كانوا يكرهون للمريد أن يجعل علماً على ثوبه من غير لونه بلا حاجة شرعية، كأن يتخرق ولم يجد خرقة من لونه، وما رقع السلف الصالح ثيابهم إلا اضطراراً، فكانوا لا يجدون من الحلال ثوباً كاملاً، إلا في النادر، فلذلك كان أحدهم يرقع ثوبه من الشراميط الحلال، فيصير ثوبهم ذا ألوان مختلفة، فهذا سبب لبسهم المرقعات» والله أعلم.

ومن شأنه إذا دخل في عهد طريق القوم، أن يغير هيئة لباسه المخالف لهيئة لباس الفقراء عادة من لبسه الفلاحين أو الجند أو المباشرين فقد قالوا: لا بد للمريد من فعل ثلاثة أمور:

تغيير الحلاس، يعني الثياب، والجلاس يعني الذين يشغلونه عن الله، والأنفاس، فيصير يحذر من تضييع نفس واحد من أنفاسه في غير طاعة ـ وفي غير رواية: والانعباس، وهو أن يعبس بوجهه لكل من يريد أن يشغله عن ربه، حتى ينفر الناس من مجالسته».

وقد حث القوم المريد على التشبه بالقوم في مراسمهم الظاهرة، لكي ينتقل إلى مراسمهم الباطنة، وفي كلام العلماء: «المروءة هي التخلق بخلق أمثاله في زمانه ومكانه» وجعلوا تغيير الهيئة له مخلاً بالمروءة، كما لو لبس القاضي ثوب فلاح وعمامته مثلاً، وفي المثل السائر «كل كلّ ما تشتهي نفسك ـ يعني من الحلال ـ والبس ما يلبسه أبناء جنسك» والله أعلم.

ومن شأنه أن يكون ذا نهضة ونشاط على الدوام، فلا يرمي بنفسه إلى الكسل وقتاً من الأوقات، فليحذر أن يصلي النافلة قاعداً مع القدرة على القيام، أو يتناول حاجة وهو قاعد، أو يزحف إلى الحاجة حتى يصل إليها إذا كانت قريبة منه، أو يرسله شيخه في حاجة إلى السوق مثلاً فيقول: انظر هل بقي حاجة أخرى ليكون خروجي للسوق مرة واحدة؟ ونحو ذلك على وجه الكسل لا على وجه الخوف من فتنة الخروج، وكل من فعل شيئاً مما ذكرناه فهو عاجز لا يصلح للطريق.

ومن الكسل أيضاً طلبه دابة يركبها إذا أرسله شيخه في حاجة، مع قدرته على المشي إليها وحمل تلك الحاجة على ظهره أو في يده عادة، بل يرى الشرف له إذا خدم الفقراء وتعب في حوائجهم. فينبغي للشيخ إذا رأى المريد يميل إلى الرخص والراحة، أن لا يتعب نفسه فيه، ويأمره بالحرفة والصنائع، فإن كلاً ميسر لما خلق له، والله أعلم.

ومن شأنه أن يكون كثير الإطراق في الأرض إذا جلس أو مشى ويقلل من الالتفات وفضول النظر، وإن أرخى الطيلسان دائماً على وجهه بقدر ما ينظر مواقع قدمه فقط، كان أعون له، قالوا: وهذا دأب المريد ما لم ينظر إلى الأمور بعين الاعتبار، فإذا صار ينظرها بتلك العين فلا يؤمر بالإطراق إلا على وجه الحياء من الله لا غير، وقد كان أنس بن مالك لا يفارق البرنس صيفاً ولا شتاءً ويقول: إنه يكف البصر عن فضول النظر.

وكان السلف الصالح إذا سئل أحدهم عن صفة جليسه لا يعرفها، فكيف بصفة شيخه! وما قام أحد بهذا الأدب مثل ما قام به النقشبندية ببلاد الهند والعجم، بمجرد ما يأخذ المريد عن الشيخ، لا يعود ينظر إلى وجهه حتى يموت، وفي ذلك سر خفي، وهو أن الشيخ ربما تجلى للمريد بالعظمة التي في باطنه لله عز وجل، فلا يطيقها المريد فيموت! كما وقع ذلك لأبي يزيد البسطامي مع مريد كان يقول: مرادي أرى الله عز وجل! فقال له يوماً: إنك لا تطيق رؤية الله إلا بعد أن تطيق رؤيتي في اليقظة من حيث التجلي القلبي، فقال له المريد: بلى أطيق ذلك،

فخرج عليه أبو يزيد يوماً على غفلة، فبمجرد ما وقع بصر المريد عليه مات لوقته! فقيل له في ذلك، فقال: إني تجليت له بما انطوى عليه باطني من عظمة الله عز وجل فصعق!

وكذلك وقع للشيخ عبد المجيد شقيق سيدي عبد العال مع سيدي أحمد البدوي رضي الله عنه، فقال له عبد المجيد يوماً: يا سيدي مقصودي ترفع اللثامين حتى أرى وجهك، فقال: يا عبد المجيد كل نظرة تقتل! فقال: نفسي بذلك طيبة، فرفع سيدي أحمد اللثام عن وجهه، فخرّ سيدي عبد المجيد ميتاً لوقته! هكذا حكى لي شيخنا الشيخ محمد الشناوي.

وحكى الشيخ محيي الدين ابن العربي: أن الشيخ أبا يعزى المغربي، كان لا يقع بصر أحد عليه إلا عمي لوقته، قال: وممن رآه فعمي الشيخ أبو مدين، وكان أبو يعزى هذا من أكابر الوارثين رضي الله عنه، ثم لما عمي أبو مدين أمره الشيخ أبو يعزى بأن يمسح عينيه بشيء من ثيابه، ففعل الشيخ أبو مدين فرد الله عليه بصره. وكان الجنيد رضي الله عنه يقول: صحبت السري إلى أن مات، فما عرفت هل لحيته بيضاء أم سوداء. وأخبرني الشيخ شهاب الدين المشهور بمازن الأزهري: أنه خدم سيدي محمد بن عنان سنين، فلم يرَ له وجهاً، وكذلك الشيخ لم يعلم بطلوع لحية الشيخ مازن إلا من الناس كما مرّ قريباً؛ والله أعلم.

الطريق لا تقبل الشركة

ومن شأنه أن يكون لهجاً بذكر الله عز وجل في سائر أوقاته، ولا يجيب قط من عدله عنه إلى غيره إلا بطريق شرعيّ فإن الطريق لا تقبل الشركة معها، وكل من لم يعطها كله لا تعطه بعضها، فلا يزال المريد يلهج بذكر اسم الله، حتى يحصل له الحضور الدائم مع الله، فهناك يستغني عن ذكر اللسان بالشهود القلبيّ، وما دام لم يحصل له الحضور الدائم، فهو مأمور بذكر اللسان، وقد تقدم أن حكم الذكر في الجلاء للقلب المصدىء كحكم الحصى للنحاس المصدىء، وحكم غير الذكر من سائر العبادات كحكم الصابون للنحاس، فيا طول تعب صاحبه ويا بعد وصوله، وبالجملة فكل شيء أشركه المريد مع الذكر، قطعه عن سرعة السير وأبطأ فتحه بقدره كثرة وقلة والله أعلم.

ومن شأنه القيام بالإمامة والأذان إذا بلغ وطلبها أصحابه منه، ولا يتعلل بالحياء فإنه حياء طبيعي لا شرعي.

وكذلك من شأنه غسله لثياب إخوانه إذا اتسخت واستأذن شيخه في ذلك، كما سيأتي في الباب الثالث إن شاء الله تعالى.

وكذلك من شأنه أن يصلح السراج، وينظف المستراحات، ويهيىء ماء الوضوء لنفسه وللإخوان، وكذلك من أدبه اتخاذ المشط والمقص والسواك والخلال والإبرة ومحك الظهر والرأس، واتخاذ السجادة أو القطيفة لمسح الأعضاء بعد الوضوء للصلاة عليهما إذا لم يجد مكاناً طاهراً، وكل شيء يندب الشارع إليه فتهيئة أسبابه من السنة، وكذلك من أدبه استعمال الحنك اليمين في مضغ الطعام، فلا يمضغ على اليسار إلا لحاجة، واستعمال الطيب في الإبط، ووضع الطعام على السفرة دون الأرض، تعظيماً للنعمة وخوفاً من أن يقع الفتات على الأرض والله أعلم.

ومن شأنه تخفيف الثياب لدخول الخلاء والبداءة في التشمير للاستنجاء بالكم الأيسر، وفي التشمير لأمر آخر كوضع السفرة أو رفعها أو استعمال شيء طاهر بالكم الأيمن، ويخلع سراويله بحيث يتمكن من الجلوس ويكون ذلك بحيث لا يراه أحد، ويجعلها تحت القميص تحت إبطه الأيسر، وإذا أراد أن يدخل بيت الخلاء يضرب برجله الأرض، أو بيده الحائط، ثلاث مرات حتى يتنحنح، يعني بذلك: هل هنا أحد؟ فيجيبه الآخر من داخل بالتنحنح، ولا يطرق الباب على غفلة فربما انفتح الباب فظهرت عورة الجالس فيه، وإذا كان في الصحراء وقضى حاجته فينبغي له أن يدفن ذلك لا أن يدوس عليه أو يسجد فينجسه، والله أعلم.

ومن شأنه أن يحذر كل الحذر من الاهتمام بظهور شأنه وانتشار صيته في بلاده مثل ما انتشر صيت شيخه مثلاً، ومن قصد بذكره وعبادته ذلك فجزاؤه العقوبة بإخماد الذكر وقلة انتفاع الناس به، عكس من طلب الخفا فإن جزاءه الظهور قهراً عليه لينفع الناس.

وكان سيدي علي بن وفا رحمه الله يقول: يا مريد الله، لا تهتم بإظهار شأنك اهتماماً يحملك على الاستعانة بالخلق، فإنك إن كنت على نور وحق، فسوف يظهرك الله وكفى بالله ولياً، وكفى بالله نصيراً، وإن كنت على ظلمة وباطل، فلا تتسبب في إظهار شأنك وإشاعة صلاحك، فإنك لا تتمتع بذلك ـ إن تمتعت به ـ إلا قليلاً، ثم الله أشد بأساً وأشد تنكيلاً فاعلم ذلك.

ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة

ومن شأنه أن يكون دائم الإيثار لأصحابه في سائر الشهوات على نفسه وقد أجمع الأشياخ على أن المريد إذا كان شأنه الإيثار واحتمال الأذى، فلا بد من رفعته على جميع أقرانه، إما في الدنيا وإما في الآخرة وإما فيهما معاً.

وكان سيدي علي بن وفا رحمه الله يقول: لا يسود أحد على أقرانه إلا إن آثرهم على

نفسه، ولم يشاركهم في شيء مما استشرفت إليه نفوسهم، وكان يقول: من شأن المريد، أن لا يتأثر على شيء فاته من الدنيا، ومتى تأثرت منه شعرة إذا دخل اللصوص وأخذوا جميع ما فيها فهو كاذب في الطريق، إذ الصادق ينشرح لكل شيء فاته من الدنيا فضلاً عن التأثر عليه، والله أعلم.

ومن شأنه التباعد عن كل من لا يراه يعمل بعمله وبعلمه، لئلا يسرق طباعه مثله فيهلك، فإن جليس السوء أضر على جليسه من إبليس فإن إبليس إذا وسوس للمؤمن عرف المؤمن أنه عدو مضل مبين، وإذا أطاع وسواسه عرف أنه عصى ربه عز وجل فيأخذ في التوبة من ذنبه وكثرة الاستغفار عنه ولا هكذا إخوان السوء لأنه يلبس الحق بالباطل على وفق غرضه وهواه، ولا يكاد يعتذر عن ذنب، وربما احتج بالقضاء والقدر وجادل بالباطل، ومن خالط مثل هذا ضل سعيه، وقد قالوا: ستون من مردة الشيطان لا يفسدون ما يفسده قرين السوء في لحظة.

فكن يا أخي فطناً ولا تجالس إلا من رأيته يعمل بعلمه، واحذر من الاغترار بمن لا يراعي ذلك من الفقراء، فقد كان سيدي إبراهيم المتبولي إذا خرج من زاويته مريد ليتعلم العلم في الجامع الأزهر يقول له: إذا دخلت الجامع فاسأل عن علمائه فكل من مدحه الناس بالورع والزهد وقلة التردّد إلى الأكابر فاقرأ عليه، وإياك أن تقرأ على من لا يتورع في مأكله أو ملبسه فإنك تصير مثله على طول، وإذا تعلمت العلم فاطلب طريق العمل به على يد الصوفية فإنهم يقربون عليك الطريق، وإذا قال لك فقيه بعد ذلك: ماذا استفدته بعدنا من صحبتك للصوفيّة؟ فقل له: استفدت منهم حسن العمل بما تعلمته منكم.

المريد الصادق

فلو أن الفقهاء عادة يعتنون بالعمل بعلمهم كما يعتني به الصوفية لكانوا هم الصوفية، ولم يحوجوا طالباً إلى غيرهم، كما كان عليه السلف الصالح من العلماء، فإن حقيقة الصوفي هو عالم عمل بعلمه على وجه الإخلاص لا غير، وكان الإمام الشافعي رحمه الله مع جلالته يجالس الصوفية، فقيل له: ماذا استفدت من مجالسة هؤلاء؟ فقال: استفدت منهم شيئين، قولهم: الوقت سيف إن لم تقطعه قطعك، وقولهم: إن لم تشغل نفسك بالخير، شغلتك بالشر.

وكذلك كان الإمام أحمد رحمه الله يجالس أبا حمزة البغدادي الصوفي وكان إذا أشكل عليه شيء يقول: ما تقول في هذا يا صوفي؟ وكفى بذلك منقبة للقوم، فلولا أن عندهم مزيد خصوصية، ما احتاج إليهم مثل الإمام أحمد. وحكى ابن أيمن في رسالة الإمام أحمد أنه كان

يمنع الناس عن اجتماعهم بالصوفية ويقول: وهل مع أحد منهم شيء زائد على ما معنا؟ حتى نزل عليه منهم جماعة في الليل من دور قاعته[1]، فسألوه عن مسائل في الشريعة فأعجزوه، ثم طاروا في الهواء ثم قالوا له: طر معنا فلم يستطع. فمن ذلك اليوم صار يحث الناس على الاجتماع بالصوفية ويقول: إنهم زادوا علينا في العمل بما علموا.

ومن شأنه أن لا يلتفت إلى مال خرج عنه قبل دخوله في الطريق، ولا إلى دار ولا ضيعة ولا سبب من الأسباب، فإن الالتفات إلى ذلك من أضر شيء على المريد الضعيف، وربما انتكس إلى حالة أقبح مما كان عليه قبل دخوله في الطريق، وقد كان الجنيد رضي الله عنه يقول: لو أقبل صادقاً على الله تعالى ألف عام ثم أدبر عنه لحظة كان ما فاته في تلك اللحظة أكثر مما ناله قبل ذلك.

وإيضاح ذلك أن كل لحظة متضمنة لجميع الأمداد السابقة، ويزيد عليها بمدد الوقت، فإن جود الحق تعالى لم يزل فياضاً على الدوام، والله أعلم.

ومن شأنه أن يكون مجتهداً في طاعة ربه لا سيما أول بدايته فإنهم قالوا: من لم يكن مجتهداً في بدايته، لا يفلح له مريد في نهايته، وذلك لأنه إذا نام نام مريده غالباً، وإذا صام صام مريده كذلك، وإذا تناول الشهوات تناولها مريده كذلك. وهكذا في سائر الأخلاق، وإيضاح ذلك أن استمداد المريد الصادق إنما هو من شيخه، فكل حالة كان شيخه فيها استمد منها المريد، حتى إن الشيخ لو غفل عن ربه فلا بد من غفلة مريده قهراً عليه، فلا أحد أتعب قلباً ولا بدناً ممن نصب نفسه إماماً للمريدين، لكن ذلك أغلبيٌّ لا كليّ، فقد يغفل المريد عن ربه حال حضور شيخه معه.

وكان سيدي إبراهيم الدسوقي يقول: لا بد للمريد من المجاهدة مع الإخلاص، فإنه إذا صدق في معاملة الله تعالى في السرائر، جعله على الأسرة والحظائر، وكان يقول: من خلص النظر إلى وراء، سلم من الانتكاس بين الورى، وكان يقول: من لم يكن عفيفاً، نظيفاً، شريفاً، فليس هو من أولادي، ولو كان ولدي لصُلبي، ومن كان ملازماً للطريقة والديانة، والصيانة، والزهد، والورع وقلة الطمع، فهو ولدي وإن كان من أقصى البلاد، وكان يقول: يجب على المريد الضعيف الحال، أن يأخذ من العلم ما يجب عليه تأدية فرضه ونفله، ولا ينبغي له أن يشتغل بشيء زائد على ذلك من الفصاحة والبلاغة، حتى ينتهي سيره ويعرف ربه، وهناك يصير لا يشغله عن ربه شاغل، فإن قرأ في علم النحو كان مع الله، أو في علم الكلام كان

---

(1) دور قاعته: بمعنى الدهليز.

مع الله، أو في علم الأحكام كان مع الله، كشفاً وشهوداً، بخلاف من لم يبلغه بسيره، فكل شيء اشتغل به في الوجود ربما يشغله عن الله، حتى الكلام المباح.

وكان يقول: من آكد ما يجب على المريد مطالعته، لما كان فيه مناقب الصالحين وآثارهم من العلم والعمل، وكثرة الذكر ليلاً ونهاراً، لأن ذلك يجذبه إلى اللحوق بهم، والله أعلم.

ومن شأنه أن لا يكون عنده منافسة لأحد، ولا جدال في شريعة ولا حقيقة، ولا منافسة في تصحيح أعمال غيره، لأن ذلك من وظيفة الأشياخ، وأما المريد فإن اشتغل بذلك، قطعه عن السير وأورث عنده الرئاسة والعجب، فهلك من حيث لا يشعر، بل الواجب عليه أن يكون عمّالا في طريق الترقي، لا يمل منها كسلاً ليلاً ولا نهاراً، وللجدال أقوام وللتسليم أقوام.

وكان سيدي إبراهيم الدسوقي رحمه الله يقول: من شرط المريد الصادق، أن يكون خارجاً عن حظوظ نفسه كلها، لا التفات له إلى حظ من الحظوظ من مال أو جاه أو نسبة إلى صلاح، يرضى بالتلف والضيق ويفرح بالخمول وعدم الشهرة، كما هو شأن الصادقين؛ لأن الفلاح والنجاح لا يصحّ إلا لمن ترك حظوظ نفسه وقابل الأذى بالإحسان والشر بالاحتمال.

وكان يقول: من شرط المريد الصادق أن لا يكون له فعل رديء، ولا يصرفه عن طريق القوم صارف، ولا يرده عنها السيوف والمتالف.

وكان يقول: من شرط المريد أن لا يكون عنده دعوى صادقة فكيف بالكاذبة، ولا يكون بينه وبين الأحداث والنساء الأجانب وُدٌّ ولا إخاء، إنما ذلك للأشياخ.

وكان يقول: من شأن المريد أن يكون عَمّالاً ببدنه وقلبه، ليس عنده شقشقة بالكلام في الطريق، ولا يتكلم فيها حتى ولو تخلق بأخلاقها، حتى يأذن له شيخه، قال: وغالب مريدي زماننا هذا قد قنعوا من الطريق بكلمات تلقفوها من بطون الكتب أو من أشياخهم، فمن سمعهم ظن أنهم من القوم؛ فلا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم.

ومن شأنه أن يفتش على الحل في اللقمة، وساتر العوْرة، وما دام لسانه يذوق الحرام والشبهات فأعماله لا يفي نورها بظلمة تلك اللقمة، ومعلوم أن عمل المريد دائماً، إنما هو فيما يستنير به قلبه ليفرق بين الهدى والضلال. وكان سيدي إبراهيم الدسوقي رضي الله عنه يقول: من شأن المريد الصادق أن لا يلتفت بقلبه إلى تزكية الناس له، بل الواجب عليه أن يفتش نفسه عن كل شيء زكاه الناس به، فربما كتب الشيخ للمريد إجازة أيام الاستقامة، ثم ان المريد غير وبدل، فماذا تنفعه تلك الإجازة وهو قد غير وبدل في أحوال أهل الطريق؟ بحيث لو أنه عرض

على الشيخ ما ارتكبه من الزلات بعد الإجازة لرجع عن إجازته وحكم على نفسه بالخطأ في ذلك، فليفتش المريد نفسه بعد الإجازة ولا يقنع بكتابة درج يكون عنده فإن ذلك غرور.

وكان يقول: إذا اشتغل المريد بإعراب الكلام العادي واستقامته وسلامته من اللحن، فقد تورع منه في الطريق؛ إنما ينبغي له الإعراب والاستعانة في الأعمال الصالحة، لكن لا بأس بأن يتعلم من النحو ما يحفظه عن اللحن في القرآن والحديث والله أعلم.

ومن شأنه أن يكون ذا صبر شديد على ملازمة السهر والجوع والعزلة عن الناس ببدنه وقلبه، فقد قال سيدي إبراهيم الدسوقي: إن الطريق إلى الله تعالى تفني الجلاد وتفتت الأكباد، وتضعف الأجساد، وتدفع للسهاد، وتسقم القلب، وتذيب الفؤاد. وكان يقول: من أعظم ما يؤمن به المريد المحبة والتسليم للشيخ، وإلقاء عصا المعاندة والمخالفة، والسكون تحت مراد شيخه وأمره، فإذا كان كل يوم يزداد محبة في شيخه وفي التسليم له، سلم من القطع، فإن عوارض الطريق وعقبات الالتفاتات والإرادات هي التي تقطع الأمداد وتحجب المريد والله أعلم.

ومن شأنه ان يفر ممن يرمي أهل الطريق بزور، أو بهتان، أو رياء أو نفاق، فإن كل من تجرأ على أهل الطريق أبغضه الله ومقته، فلا يفلح بعد ذلك أبداً، ولو كان على عبادة الثقلين سوى ذلك، فإن قلت: فكيف يصح لنا أن نعرف محبة الله تعالى لعبد من عبيده؟ فالجواب أننا نعرف محبة الله تعالى له، بتقربه إليه بالطاعات وكثرة النوافل، فإذا رأينا من يفعل ذلك، وجب علينا محبته وحرم علينا بغضه، وليس لنا أن نشق قلبه حتى نعرف أنه مخلص أو مُرَاءٍ، لأن ذلك إلى الله تعالى لا إلينا. وكان سيدي إبراهيم الدسوقي يقول: من علامة كذب المريد في دعواه كمال الصدق في محبة ربه، نومه في الأسحار، وفوات شربه من دن الدنو، وخمر الخمار، وكان يقول: لا يصح لمريد القرب من حضرة ربه إلا إن ترك كُلَّ ما سوَاه من مقام ودرجات، وخوارق وكرامات، وكان يقول: كل مريد قبل فتوى إبليس في أن الله تعالى لا يعاقبه على ترك فعل السنن والأوراد، تعس وانتكس وفاته المراد، فإن الشيطان إنما يأمر المريد برخص الشريعة، يستدرجه إلى البغي والغيّ. فإذا عمل المريد بالرُّخص بعد أن كان يعمل بالعزائم، نقل بعد ذلك إلى فعل المحظورات ويقول له: إن هذا الفعل مقدر عليك قبل أن تخلق، فأي شيء كنت أنت؟ ويوسوس له بأنك صرت من الموحدين الخالصين، لا ترى لك فعلاً مع الله تعالى، فيهلك مع الهالكين، لأنه لا يصير يتوب ولا يستغفر من ذنب.

وكان يقول: من شرط المريد أن يكون من أبعد الناس عن الآثام كثير السهر والقيام، كلما زاد في خدمة سيده زاده قرباً وإحساناً.

وكان يقول: إياك يا مريد أن تدعي كمال محبتك لله تعالى ثم تعصي ربك عز وجل، فإنك إذا عصيته ربما قال لك لسان حضرته أُفٍّ عليك أما تستحي مني؟ أين دعواك الصدق في طلب القرب مني؟ أين غسلك ثيابك المدنسة لمجالستي؟ كم تنقل قدمك إلى الآثام! كم تنام وأحبابي قد صفوا الأقدام! أنت وعزتي وجلالي مدَّعٍ كذاب! والسلام.

وكان يقول: الله تعالى خصم كل مريد شهر نفسه بطريقنا، ولم يقم بحقها، واستهزأ بها.

وكان يقول: من خان لا كان، ومن لم يتعظ بكلامنا، فلا يمشي في ركابنا، ولا يلم بنا، فإننا لا نحب من أولادنا إلا الشاطر المليح الشمائل، وذلك ليصلح قلبه لوضع سرنا فيه، فيا أولادي إن كنتم صادقين في الإرادة فلا تدنسوا طريقي ولا تلعبوا في تحقيقي، ولا تلبسوا على أنفسكم في الصدق، وأخلصوا تخلصُوا، وكما وفينا لكم بحق التربية والنصح، فوفوا لنا بالاستماع والاتعاظ، وما آمركم إلا بما أمركم به ربكم، ونبيكم ﷺ.

إياك والادعاء

وكان يقول: من علامة المريد الصادق، أن لا يقول قط أنا أفعل كذا من العبادات العظيمة، فإن الله تعالى يعجز المدعين وإن كانوا على أعمال الثقلين هبطوا وأصحاب مبركة سقطوا.

وكان يقول: إذا غفل المريد الصادق عن مناقشة نفسه وعن حملها على الرياء والنفاق، هلك مع الهالكين، فكيف بالمريد الكاذب؟

وكان يقول: من علامة المريد الصادق، أن تطوى له مقامات الطريق البعيدة على غيره من شدة عزمه، لأن حلاوة القرب من حضرة ربه تنسيه طول التعب.

وكان يقول: من علامة المريد الصادق، أن تنقلب له الأضداد، فيصير من كان من الصالحين يسبه يحبه، ومن كان يقاطعه يواصله، ومن كان لا يشتهيه يثني عليه، ولا عبرة بعداوة المنافقين، لأنهم أعداء للأنبياء والمرسلين، والله أعلم.

سر الطريق في أورادها

ومن شأنه أن لا يطيع الملل من قراءة الأوراد التي أمره بها شيخه، فإن كل شيخ قد جعل الله مدده وسرَّه وسرّ طريقته في أوراده التي يأمر بها المريد، فمن ترك ورده، فقد نكث عهد شيخه. وأجمعوا على أنه ما قطع مريد ورده إلا انقطعت عنه الأمداد في ذلك اليوم. وإيضاح ذلك، أن

طريق القوم تصديق وتحقيق، وجهد وعمل، وغض بصر وطهارة قلب ويد وفرج ولسان، ومن خالف شيئاً من أفعالها رفضته الطريق كرهاً عليه.

وقد كان سيدي إبراهيم الدسوقي رضي الله عنه يقول: يجب على المريد أن يجمع همّة العزم، ليعرف الطريق بالذوق لا بالوصف والقلم.

وكان يقول لمريده: إن كنت يا ولدي صادقاً، فتجرد من قالبك إلى قلبك، والزم الصمت عن الاشتغال بكل ما لا فائدة فيه من الجدال، وزخارف الأقوال، وصمم العزم، واركب جواد الطريق! ثم يقول: آه آه آه ما أحلى هذه الطريق، ما أسناها، ما أمرّها، ما أقتلها، ما أحياها، ما أحلاها، ما أصعبها، ما أكبرها، ما أكثر مصايدها، ما أكثر مددها، ما أعجب واردها، ما أعمق بحرها، ما أكثر سباعها ووحوشها، ما أكثر عقاربها وحياتها!!

وكان يقول: كيف يدعي أحدكم محبة ليلى، وهو ليلا ونهاراً مع عذالها ولوامها والمنكرين على أهلها والمعترضين عليها بالجهل والخائنين لعهودهم، إنما تبرز ليلى لمن تهتّك في حبها، ولم يسمع كلام المنكرين على أهلها، فإن ليلى لا تحب من يحب سواها إلا بإذنها، بل لا تحب من تخطر محبة سواها في قلبه، إنما تحب من كان بحبها سكران، وبشرابها ثملان، ولهان، ذهلان، عرقان، نشوان، هيمان، لو اجتمع الثقلان أن يلوُوا قلبه بها، أو يحلوا عقدة عهدها، ما استطاعوا. وكان يقول: من شرط المريد الصادق أن لا يكثر من مجالسة أرباب المحال، وزخارف الأقوال، ولقلقة اللسان، وإنما يجالس من أخذته الطريق ودققه التمزيق، وتفرق عنه كل صديق، وذاب قلبه وجسمه من تجرع مراراتها، ثم يقول: من شك في قولي بأن مجالسة هؤلاء يميت قلبه، فليمتحن نفسه بالأنس بالله تعالى، إذا ذكر الله في مجلس ذكر، وإذا قرأ شيئاً في أحكام الشرع أو النحو أو غير ذلك مع خلو قلبه عن الذكر، فإنه بيقين يجد الأنس في ذكر الله تعالى أكثر من الأنس الموجود في غيره، وما كان فيه الأنس أكثر فهو أقرب إلى حضرة شهود الله تعالى، لأن الأنس من علامة القرب والرضى، وتركه من علامة البعد والله أعلم.

ومن شأنه أن يوبخ نفسه، ويحثها على السير في الطريق كلما وقفت مع حظ من حظوظها، ويقدم حذف العلائق على كل عمل، فإنهم قالوا: مثال من خزن عنده درهماً، مثال من ربط رجله بخيط دارج، ومثال من خزن نصفاً مثال من ربط نفسه بحبل الغسيل، ومثال من خزن ديناراً مثال من ربط نفسه بحبل البئر، ومَنْ زاد في الدنيا زاد في الحبال، وينبغي له كلما تعب من عبادة أن يقول لنفسه: اصبري فإن الراحة أمامك، وإنما أريد بتعبك إكرامَك.

وقد كان سيدي إبراهيم الدسوقي رحمه الله يقول: من شرط المريد الصادق أن يكون

سائراً في المقامات ليلاً ونهاراً، غدوّاً وآصالاً، لا مقيل له ولا هدوّ، وجواده قد فرغ من اللجم، وامتلأ من الشجاعة والعزم، قد شق بطنه السرى، وأسقمها البرى، لا يفند همته مفند، ولا يهوله مُهلك، ولا ترده ضربات الصوارم، ولا يفشله شيطان غويّ، ولا مارد، حتى كل من خاصمه في محبوبه عاد مخصوماً. لا يهدى ولا ينام ولا يضحى بل الدهر كله عنده سواء، حتى يدخل خيام ليلى ويضع على خدِّه أطناب تلك الخيام ويسمع الخطاب، فهناك ينتعش ويطيب، ويقال له: استرح يا طول ما قطعت براري، وقفاراً وجبالاً وبحاراً، وظلاماً وناراً، يا طول ما تعبت وتغيبت، يا طول ما رجع غيرك من الطريق، وجئت فأكرم الله مثواك، ولا خيب مسعاك، أنت اليوم عندنا ضيف مكين أمين، وضيافتنا لا ينقضي أمدها، بل هي باقية أبد الآبدين، والله أعلم.

كيف يكون المريد؟

ومن شأنه أن لا يكون عنده حسد، ولا غيبة، ولا بغي، ولا مخادعة، ولا مكابرة، ولا مماراة، ولا ممالقة، ولا مكاذبة، ولا مصاقلة، ولا كبر ولا عجب، ولا ترفُّه، ولا افتخار، ولا شطح ولا حظوظ نفس، ولا تصدُّر في مجالس، ولا رؤية نفس على أحد من المسلمين، ولا جدال، ولا امتحان، ولا تنقيص لأحد من أهل الطريق، ولا من تزيق بالزيق، ومن ادعى الصدق في الإرادة وعنده خصلة واحدة مما ذكرنا، فهو غير صادق، ولا يجيء منه شيء في الطريق، لأن هذه الصفات توقف صاحبها عن السير، بل تطرده عن حضرة الله عز وجل إلى حضرة الشياطين، لأنها صفاتهم والله أعلم.

ومن شأنه أن يسد عنه باب مراعاة تعظيمه من المخلوقين، ولا يلتفت إلى أحد من الخلق أقبل عليه أو أدبر عنه، إلا بطريقه الشرعي، لأن من شرط المريد الصادق، أن يحب العزلة عن الناس، ولا يطلب له مقاماً عند أحد منهم، فما له ولهم؟ فلا ينبغي له حضور المجالس التي فيها لغو، أو مداهنة، أو جدال، أو عجب أو رياء ولو كانت مجالس علم، وقد قلّت السلامة من هذه الأمور في طلبة العلم، فعليك يا أخي بالوحدة إلا في حضور الجماعات، ومجالس العلم السالمة مما ذكر.

وقد كان سيدي إبراهيم الدسوقي رضي الله عنه يقول: يا ولدي إياك وحضور مجالس العلم التي يغلب على الظن انه لا إخلاص عند أهلها، فإنها تورث ظلمة في قلبك، وعليك بالعزلة عنهم بعد أن تعرف ما أمرك الله تعالى بتعليمه، فإنك يا ولدي في القرن السابع إلى العجائب والغرائب، وقد صار غالب أهله يجعلون سلوك طريق القوم خارجاً عن الشريعة، وحقيقة المحبة تدعى في الطريقة، وصاروا يرون من سوء حالهم أن باب العطاء قد أغلق على

القوم، كما أغلق عليهم، وذلك لجهلهم بما عليه أهل الطريق من المجاهدات لنفوسهم ليلاً ونهاراً، حتى تقطعت أكبادهم في طلبها وتمزقت أبدانهم من تعبها ونصبها، ولو أن أحداً منهم ذاق حال القوم لعذرهم في صياحهم، وشق أثوابهم. وكان يقول: والله ليس مطلوب المريد الصادق إلا هو؛ يعني بذلك زيادة المعرفة ، وإلا فالحق تعالى معروف لجميع المسلمين معلوم الوجود لهم.

وفي كلام سيدي علي الخواص: لا يصلح لأحد طلب الحق تعالى لأن الطلب لا يكون إلا لمفقود، والحق تعالى موجود عند سائر الطوائف، حتى عند من قال بالتعطيل، لأنه لم يعطل وجود الحق وإنما عطل صفة من صفاته لا غير كقوله: إن اسمه تعالى الحي يعني عن الاسم الباقي لأن الحي من كانت حياته لا تفنى، هكذا قال الشيخ. والحق أن ثم من يقول ما ثم إلا فروج تدفع، وأرض تبلع، والله أعلم.

وكان سيدي إبراهيم الدسوقي رحمه الله يقول: من شرط المريد الصادق أن لا يمل من شهود رؤية التقصير في سائر أحواله، فإن رؤية التقصير تفتح له باب المزيد في الدرجة، وقد يعطي المولى من هو قاصر ما لا يعطيه لأهل المحابر.

كيف يختار المريد أستاذه في الشريعة؟

ومن شأنه أن لا يقرأ علم الشريعة إلا على من عُرف بالزهد والورع، وإن أذن له شيخه في القراءة عليه كان أعون له وأقرب لغرضه.

وقد كان سيدي إبراهيم الدسوقي رحمه الله يقول: لو كان المريد يأتي إلى الطريق من باب الإخلاص في العلم والعمل، ويفعل الأوامر الشرعية امتثالاً لأمر الله تعالى لا لعلة ثواب ولا غيره، كما كان عليه السلف الصالح، لاستغنى عن القوم، ولكنه أتى الطريق بعلل وآفات في علمه وعمله فلم يُمكَّنْ من دخول حضرة الله عز وجل، فلذلك احتاج إلى حكيم يزيل علله وأمراضه ليؤهله لدخول حضرة الله عز وجل، فإنها حضرة محرمة على أهل الدعاوى والرعونات. وكان رضي الله عنه يقول: إذا لم يقدر المريد على اتباع رسول الله ﷺ في أقواله وأفعاله، فليتبع خلق شيخه لا أنزل من ذلك، فإن لم يتبع خلق شيخه هلك، ومن استهزأ بالطريق وأهلها استهزأت به الطريق ورفضته قهراً عليه. والمراد باستهزائه بالطريق عدم مشيه على قواعد أهلها

وكان رضي الله عنه يقول: قوت المريد الصادق في بدايته الجوع، ومطره الدموع، ووطره الرجوع، يصوم حتى يرق ويلين، وتدخل الرقة قلبه، وأما من شبع ونام ولغى في الكلام

وترخص، وقال ما على فاعل ذلك ملام، فلا يجيء منه شيء والسلام.

وكان يقول: ما بُنيت طريق المريدين إلا على التيار، والنار، والبحر الهدار، والجوع والاصفرار، ما هي بالتشدق ولا بالفشار، ثم يقول: آه آه آه ما رأيت أحداً من أولادي اقتفى آثار الرجال، ولا صلح أن يكون محلاً للأسرار. وكان يقول: خلوة المريد الصادق سجادته، وخلوته سره وسريرته. وكان يقول: من شرط المريد الصادق أن لا يؤذيه، ولا يتحدث فيما لا يعنيه، ولا يشمت قط بمصيبة. إذا بلي صبر، وإذا قدر غفر، يعمر الأرض بجسده، والسماء بقلبه، طريقه الكظم والبذل والإيثار، والله أعلم.

ومن شأنه أن يقلل من النوم ما أمكن لا سيما وقت الأسحار، فإن النوم ليس فيه فائدة دنيوية، ولا أخروية بالأصالة، وإنما كثرته خسران لأنه أخو الموت.

وقد كان سيدي إبراهيم الدسوقي رحمه الله يقول: كيف يدعي المريد الصادق في الحب للطريق، وهو ينام وقت الغنائم، ووقت فتح الخزائن، ووقت نشر العلوم، وإظهار المكتوم؟ أما يستحي الكذاب من الدعاوى!؟ همته راقدة، وعزيمته خامدة، وهو مع ذلك يدعي الصدق!

ثم يقول: والله ما صدق مريد في محبة الطريق إلا نبعت الحكمة من قلبه، وصار يبرىء الأكمه والأبرص، ويحيي الموتى بإذن الله تعالى.

وكان يقول: من شرط المريد الصادق أن يثبت في طلب الطريق حتى ينبت وتنبسق أغصانه، وهناك يأمن من الرجوع عنها. وكان يقول: يا ولد قلبي، إن طلبت أن تكون صادقاً معي، فتجنب معاشرة أهل الجدال بغير علم، ولا تتخذ لك منهم صاحباً فيصدك عن طريق العلماء العاملين، واجعل صاحبك كل عالم يطالب نفسه بالعمل بكل ما علم ثم لا يعد نفسه من العلماء، فإن مثل هذا يُلَقَّى الحكمة والله أعلم.

ومن شأنه أن يكون حمالاً للأذى، مواظباً على النسك والعبادة ليلاً ونهاراً، لا يحيد ولا يميل حتى يسكن من حب الله عز وجل، فإذا سكن من حبه فهناك لا يلتفت لسواه في الدارين إلا بإذنه.

وكان سيدي إبراهيم الدسوقي رحمه الله يقول: يا ولدي إن كنت صادقاً في إرادتك، وصفاء معاملتك، وطهارة سريرتك، فإياك أن تدعي أنك شممت للطريق رائحة، ولا ترى نفسك إلا عاصياً مفلساً، فكم تلف من غرور النفس مريد.

وكان يقول: يا ولدي إن طلبت أن تكون مريدي حقاً فقم قياماً دائماً، وجاهد جهاداً

ملازماً، ولا تمل ولا تولي، ولا ترخص لنفسك في ترك العبادة وقتاً واحداً بحجة العجز عنها، فإن الناقد بصير.

وكان إذا رأى من لبس لبس القوم وخالفهم في الأخلاق، ينبهه على ذلك ويقول: ليس كل من تزيا بزي القوم يكون صادقاً في طلب طريقهم، فإن الزي أمرٌ ظاهر، والقوم عملهم قلبي باطني، وما رأينا أحداً قط لبس جبة بيضاء وأرخي له عذبة وكتب له أجازة صار شيخاً بذلك أبداً.

وكان يقول: إذا لم يكن قلب المريد شفافاً، أي صافياً من الكدورات، لا يظهر لفتيلة قلبه نور، ولو عمل بجميع أعمال الصالحين. ومن هنا شرطوا التوبة للمريد من سائر الزلات، ليستنير قلبه، ثم إذا استنار وظهر نوره للخاص والعام، فمن الأدب ستر نفسه، يحجب الناس عن شهود ذلك النور ليخرج من الدنيا برأس ماله كاملاً من غير نقص.

وكان يقول: كل مريد كان له سريرة سيئة يفتضح بها في الدنيا والآخرة لو انكشفت لا يجيء منه شيء في الطريق - يا فضيحة من تزيا بزي الفقراء وخالف طريقهم.

وكان يقول: يا ولدي إن طلبت أن تكون صادقاً في إرادتك فالبس قميص الفقراء النظيف الشريف الظريف، فما الأمر بلبس الثياب ولا بسكنى العتاب والزوايا والخوانق، ولبس العبا والمرقعات، ولا بلبس القبا والأزرق وحف الشوارب، ولا بلبس الصوف والنعل المخصوف.

وكان يقول: من شأن المريد أن لا يكون في صحيفته شيء من الزلات، بل تطوى صحيفته كل يوم مضمخة معنبرة ممستكة معطرة بأعمالها الزكية، وشيمه المرضية، والله أعلم.

ومن شأنه أن تكون أعماله على وفق الشريعة المطهرة نصاً أو استنباطاً سالمة عن الشطح عند ظاهر الشريعة، فإن الشريعة هي الحد القاطع والسيف اللامع لعصمتها بخلاف ما يدعى أنه باطن الشريعة مما يخفى على العلماء وجه استنباطه من الكتاب والسنة فإنه غير معصوم.

وكان سيدي إبراهيم الدسوقي رضي الله عنه يقول: من أحب أن يكون صادقاً في إرادته، وجميع أعماله وأقواله، فليحبس نفسه في قمقم الشريعة وليختم عليها بخاتم الحقيقة، وليقتلها بسيف المجاهدة، وتجرع المرارات.

وقد رأيت في يوم كتابتي لهذا الموضع علماً من أعلام النبوة مشافهة ينهض همة المريد ويقوي إيمانه بالعمل والشريعة، فأحببت كتابته هنا، وذلك أن شخصاً أتاني برأس خروف شواها وأكل جلدها، فرأى فيها مكتوباً بالخط الإلهي فوق الحاجبين والأنف ما هذا صورته:

«لا إله إلا الله محمد رسول الله، أرسله بالهدى ودين الحق، يهدي بـه من يشاء من عباده».

ورأيت قوله «من يشاء» مكرراً في الكتابة الإلهية وذلك لحكمة فإن الله تعالى لا يسهو، فلو قدر أنه لم يكن لنا دليل على صحة شريعة محمد ﷺ ورسالته وأنها هدى من الله تعالى إلا هذه الكتابة الإلهية في داخل الرأس تحت الجلد لكفانا ذلك في الدليل على صحة شرعه ﷺ.

وحروف الكتابة هي خلو بين أنثى وذكر من الشقين، لا كهيئة الكتابة التي هي بالمداد ولا كالعروق البيض والسود في العظم، فتبارك الله رب العالمين.

وكان شهودنا لهذه الكتابة في ثاني عشر جمادى الآخرة سنة إحدى وستين وتسعماية، وكل من كان عنده شك في رسالة محمد ﷺ ورأى هذه الكتابة زال شكّه، إلا من سبقت له الشقاوة.

فالزم يا أخي اتباع السنة المحمدية على القطع بصحتها وبصحة ما وعدت وتوعدت به من الثواب والعقاب، والله تعالى أعلم.

ومن شأنه الصبر على الجوع بل نسيان الأكل بالكلية اشتغالاً بربه عز وجل.

وقد كان الشبلي يقول: مكثت سنين أيام بدايتي وأنا لا آكل إلا يوم الجمعة من طعام أبي القاسم الجنيد، فكنت لا أتذكر إلا حين أحضر عنده يوم الجمعة، وما لم أحضر لا يخطر الأكل على بالي.

وكان سيدي إبراهيم الدسوقي رحمه الله يقول: قاعدة الطريق للمريد ومحكمها ومجلاها هي الجوع، وذلك لأنه يغسل من الجسد مواضع إبليس، فمن أراد السعادة فعليه بالجوع الشرعي، ولا يأكل إلا على فاقة، ومن طلب شربة بلا حمية أخطأ طريق الدواء. وقد تقدم أن الجوع أحد أركان الطريق عند الأبدال وهي أربعة: الجوع، والسهر، والعزلة، والصمت.

ومن جاع استتبعه الثلاثة أركان بخلاف العكس في الثلاثة، فإن من جاع ضاق صَدْره من الناس، فأحب العزلة، وثقل عليه كلام اللغو، وقل نومه، بدليل أن المريض إذا برأ من مرضه يمكث أياماً لا يأخذه نوم حتى أنهم يجعلون له دواءً للنوم من المرطبات فإنه كان جوعاناً مدة المرض، وذلك يزيل رطوبات البدن التي تجلب النوم فافهم.

فمن شبع وأراد الصمت أو السهر أو العزلة في طاعة الله تعالى مع عدم الخواطر المشغلة

عن كمال الإقبال فلا يقدر على ذلك والله أعلم.

ألا بذكر الله تطمئن القلوب

ومن شأنه أن لا يكثر من مطالعة كتب القوم وغيرها بل يشتغل بذكر ربه عز وجل فإنه هو الجلاء لقلبه.

وقد كان سيدي الشيخ أبو السعود بن أبي العشاير يقول: كتاب المريد هو قلبه.

وكان يقول: الأصول التي يبني عليها المريد أمره أربعة أشياء: اشتغال اللسان بذكر الله عز وجل مع حضور القلب، وجبر القلب على جمعه لمراقبة الله عز وجل، ومخالفة النفس والهوى من أجله تعالى، وتصفية اللقمة لعبوديته من الشبهة، وهذه الرابعة هي القطب، وبها تزكو الجوارح، ويصفو القلب. فالمريد الحاذق يعطي نفسه حظها الشرعي من الأكل ويمنعها ما يطغيها، فإن النفس أمانة الله تعالى عند العبد، وظلمها بالجوع المفرط أو غيره كظلم الغير على حد سواء بل هو عند بعضهم أشد، لما صح عندهم من تغليظ العذاب على من قتل نفسه زيادة على عذاب من قتل غيره. قال: والإكسير الذي يقلب عين طينة العبد ذهباً خالصاً هو الإكثار من ذكر الله تعالى مع الإخلاص.

قلت: وإيضاح ذلك أن الحق تعالى لا يقرِّب إلى حضرته إلا من استحيا منه حق الحياء، ولا يصح له أن يستحيي كذلك إلا إن حصل له الكشف ورفع الحجاب، ولا يصح له الكشف إلا بملازمة الذكر، وهذه طريق يصل بها المريد بسرعة، والله أعلم.

ومن شأنه أن يكون عنده شوق للطريق وأهلها لا يمله ولا يطفىء لهيب قلبه، وقد كان سيدي علي بن وفا رحمه الله يقول: من شرط المريد أن يكون بباطنه بيت الاحتراق على الدوام، قال: ويشهد لذلك ما قاله الأطباء من أن برد الرحم سبب في عدم الحمل.

وكذلك المريد متى لم يجد لوعة الوجد، وحرقة الطلب والشقو إلى المقصود، لا يتولد فيه من فيض أستاذه حرارة يظهر منها نتاج، فهو مثل الوقود البارد لا يؤثر فيه القبس إلا دخاناً كالدعاوى والرعونات الحاصلة للنفس الدخيلة بين القوم بغير حق وحرقة وشوق وطلب وجد إذ هي كالصحيفة الرطبة التي لا تثبت عليها كتابة أو كحراق مبلول لا يحرق ولا يعلق فيه قبس.

وكان يقول: إياك أن تحسد من اصطفاه الله تعالى عليك من أقرانك وجعله من أهل الطريق دونك وانقادت إليه الأمراء والأكابر دونك وتقول: أنا تربيت وإياه ونحن نعرف بعضنا؛ كما يقع فيه كثير من أهل الرعونات. بل الواجب عليك أن تكون تلميذاً له وتتبرك به كما يتبرك به غيرك حيث تعين ذلك عليك بطريقه الشرعي، فمن حسد من رفعه الله عليه ربما مسخ الله

صورة قلبه كما مسخ إبليس من الصورة الملكية إلى الصورة الشيطانية حين حسد آدم عليه السلام وتكبر عليه وقال: أنا خير منه.

قال: وفي ذلك تحذير عظيم لمن يحسد أحداً ممن رفعه الله عليه من أقرانه ويتكبر عليه ولا يخضع ولا يأتم به. وقد أجمع الأشياخ على أنه يجب على الشيخ إذا رأى مريده قد فاقه وعلا عن مقامه أن يكون تلميذاً له ويدخل تحت حكمه كما تقدم، لأن الصادق ليس قصده رياسة على العباد وإنما قصده القرب من حضرة الله عز وجل، فإذا رأى من هو أقرب منه إليها فالواجب عليه أن يكون تلميذاً له كما وقع لسيدي يوسف العجمي وغيره فربّوا جماعة فبرعوا عليهم فعادوا وأخذوا عنهم رضي الله عنهم أجمعين.

الإنسان الخالص

وكان يقول: ما ظهرت السيادة في أحد إلا ويجعل الله تعالى له أتباعاً يهتدون به لما عنده من الصلاح والتدبير لتابعه. وكان يقول: ما دمت أيها المريد صاحب صفات كريمة فأنت إنسان باق على أصل إنسانيتك لم تنسخ ولم تمسخ فإن نسخت منك الكرائم بالذمائم والعياذ بالله تعالى فقد نسخت منك صفتك الإنسانية بالصورة الشيطانية وصرت شيطاناً ملعوناً.

وإن خلطت في التخلق بالصفات لم تكن إنساناً خالصاً ولا شيطاناً خالصاً، وفي ذلك يتفاوت المتفاوتون والحكم للأغلب.

ومن شأنه أن لا يسامح نفسه في الاشتغال بشيء من الأكوان فإن في ذلك الحجاب عن الرحمن ومن فعل ذلك ذلّ وهان كما أن من شغل قلبه بالرحمن عزّ وخضعت له الأذقان وتأمل قوله تعالى: يا عبدي خلقت كل شيء من أجلك وخلقتك من أجلي فلا تشتغل بما خلق لك عما خلقتك له.

وانظر يا أخي إلى الرجل إذا عشق امرأة ينكحها، أو حمارة يركبها، وصار يخدمها ويمتهن نفسه في خدمتها، كيف تمتهنه القلوب بعقولها وإن عظمه الناس من الظاهر رغباً ورهباً.

وانظر إلى الرجل الشحاذ إذا شغل قلبه بربه، وامتهن نفسه في مرضاته، كيف تعظمه العقول والقلوب، وإن أعرضت عنه لهواً وتكبراً فافهم.

وكان سيدي علي بن وفا رحمه الله يقول: إياك أيها المريد والميل إلى صحبة أبناء الدنيا المعرضين عن طريق شيخك فإن كل مريد تجمل بصحبة أبناء الدنيا فكأنه نادى على نفسه بأنه

ممن أهانه ربه ومن يهن الله فما له من مكرم وفي القرآن العظيم: «فأعرض عن من تولى عن ذكرنا ولم يرد إلا الحياة الدنيا» أي وأقبل بكليتك علينا وعلى من يريدنا تسلم وتغنم والله أعلم.

وكان يقول: كلما أغفل قلبك عن ربك فهو عدو لربك فأعرض عنه وتبرأ منه إلى ربك وتوجه بقلبك وجسدك إلى خالقك تكن أوّاهاً حليماً فتأمل فيما قلته لك فإن صديق العدو عدو ومن شأنه أن يرفع همته عن طلب الأجر على أعماله وعباداته، فقد كان سيدي علي بن وفا يقول: من طلب أجراً على عمله فهو امرأة وإن كان له لحية فإن الرجال للمنن القدسية والنساء للزينة الحسية فأيما امرأة تعلقت همتها بالمنن القدسية فهي رجل وأيما ذكر تعلقت همته بالزينة الحسية فهو امرأة. وكان يقول: ما دمت أيها المريد مع الاضداد فأنت في غلبة فإذا خلصت منهم فقد استرحت من هذه الغلبة.

وكان يقول: اثبت أيها المريد تنبت فما نبتت قط عروق شجرة قطعت عمرها في التنقل من مغرس إلى مغرس. وكان يقول: اقتل أيها المريد نفسك بالتجرد عن صفاتها الردية يبدلك الله تعالى مكانها نفساً زكية ثم إن جملت كذلك هذه النفس الزكية بالتجرد عن الدعاوى الغَوِيَّة فهي خير زكاة وأقرب رحماً.

ومن شأنه أن يصبر على ما يقع له في الطريق من الامتحانات، فإنه لا بد لكل صادق من ذلك شاء أم أبى، إذ لا يصطفيه الحق تعالى وهو يميل إلى أحد سواء، فاذا قام عليه الخلق بالإنكار والرمي بالزور والبهتان نفرت نفسه منهم ضرورة وتجردت إلى محبة الحق تعالى.

وقد كان سيدي علي بن وفا رحمه الله يقول: إذا قال المريد الصادق عند رميه بالبهتان وظهور براءته من الريب وما أبرىء نفسي، قال الملك: ائتوني به أستخلصه لنفسي، وإذا قال المريد الكاذب عند رميه بالبهتان: أنا منزه عن مثل ذلك وصار يزكي نفسه، قيل له: أنت لا تصلح لتقريب الملوك، ارجع إلى سياسة الدواب وعمل الحرف.

وكان يقول: إذا قبل المريد النصيحة أمن من الفضيحة.

وكان يقول: أيها المريد إياك ومخالطة الحجاب الغافلين عن ذكر الله عز وجل فإنهم يحجبونك عن ربك.

وكان يقول: مشاهدة الغافلين عن ذكر الله تعالى عقوبة يعاقب الله تعالى بها المريد وليست بعقوبة على أئمة الهدى من أطباء القلوب لأن قلوبهم قد حيت حياة ثانية.

وكان يقول: إياك أيها المريد أن تشغل قلبك بشيء من الملاذ الفانية فإنها كالشعر النابت في القلب، وإذا نبتت شعرة واحدة في القلب مات صاحبه لوقته، ولذلك جعل الله تعالى محل

الشعر ظاهر جلد الإنسان دون باطنه، ومن هنا تفهم إن كنت تفهم حكمة دخول المؤمنين الجنة جرداً مرداً مكحلين متعاضدين على قلب رجل واحد، أي لأنه لو نبت على أجسادهم الشعر لماتوا لأنهم كلهم قلوب جسماً وروحاً لا حجاب لهم عن ربهم فافهم.

وكان يقول: جاهد نفسك أيها المريد بالرياضة لها في هذه الدار فإنها مركبك على الصراط، فإن تركت رياضتها هنا وقع لك على الصراط ما يقع لمن ركب الدابة الحرون التي تضربها فتتشمص وتتأخر بك إلى وراء وتزوغ بك يميناً وشمالاً، فكيف حالك إذا ركبت من هذه صفته على صراط أدق من الشعر وأحدّ من السيف؟ وكان يتأوه كثيراً ويقول: آه آه آه لم أجد إلى الآن مريداً صادقاً على حكم المطابقة، ولو وجدته لكنت أنا هو.

ومن شأنه أن يكون ناهض الهمة، خفيفاً في أمر الطهارة بسرعة، فلا يزيد على الغسلات الشرعية، فإن ذلك من وساوس الشيطان.

كن نظيف الباطن والظاهر

كان سيدي علي بن وفا رحمه الله يقول: إياك أيها المريد الصادق أن تشتغل بطهارة ثيابك وبذلك تنسى طهارة قلبك كما عليه طائفة الموسوسين فإن ذلك يشغلك عن تدقيق النظر في تطهر قلبك فتضيع الوقت وتكتسب المقت وعليك بالطهارة الحقيقية وهي أن تلجأ إلى الله تعالى وتتضرع إليه أن يطهرك بصلاته الطيبات، ويزكيك بتحياته المباركات، ويطيبك للموت ويطيب الموت لك ويجعل فيه راحة قلبك وروحك، وأن يحيي روحك بمعرفته ومشاهدته، وها أنت قد وجدت البحر المحيط العذب الصافي فتطهر منه، وقل الحمد لله وسلام على عباده الذين اصطفى.

وكان سيدي أبو الحسن الشاذلي رحمه الله يقول: إذا كثرت عليك أيها المريد الخواطر والوساوس فتوجه بقلبك إلى شيخك، فإن لم تُزل فتوجه إلى ربك، وقل: «سبحان الملك القدوس إن يشأ يذهبكم ويأت بخلق جديد وما ذلك على الله بعزيز» ويخاطب بذلك الوساوس.

وكان يقول: إذا ثقل الذكر على لسانك وكثر اللغو في مقالك فاعلم أن ذلك من عظيم أوزارك أو لكون نفاق في قلبك، فتب إلى الله من ذنوبك واعتصم بالله يكفيك ويصلح حالك.

وكان يقول: إذا انتصر المريد لنفسه وأجاب عنها فاعلموا أن الله تعالى لم يرد أن يؤهله لأن يكون من أهل حضرته.

وكان يقول: إذا رأيتم المريد يتهاون في قراءة تكبيرة الإحرام فاعلموا أنه لا يجيء منه

شيء في الطريق.

وكان يقول: لا تؤخر أيها المريد طاعة وقت لوقت آخر فربما عوقبت بفواتها أو بفوات غيرها أو مثلها جزاء لما كفر من نعمة ذلك الوقت فإن لكل وقت سهماً من الإقبال على الله تعالى من عبده بحكم الربوبية.

وكان رضي الله عنه يقول: من أراد عز الدارين فليدخل في هذا المذهب الذي نحن فيه يومين! فقال له قائل: وكيف ذلك؟ قال: يفرق الأصنام التي هي الألوهية المذمومة عن قلبه أول يوم ويرح من الدنيا بدنه في ثاني يوم ثم يكن كيف شاء فإن الله تعالى لن يدعه بلا مدد يمدّه به ولو لم يكن له شيخ.

وكان يقول: حصول العزّ للمريد على قدر تركه هواه فمن ترك نصف أهويته حصل له نصف العز، وكذلك القول في الثلث والربع والخمس والسدس وغيرها، فمن طلب العز الكامل فليترك جميع الأهوية.

وكان يقول: من أدب المريد الصادق أن لا يمد رجليه بحضرة الناس عبثاً وإنما يمدها للاستراحة من التعب ومثل ذلك لا يؤاخذ به المريد إن شاء الله تعالى.

ومن شأنه إن دخل في الطريق وهو متزوج أن لا يطلق أو عازب أن لا يتزوج إلا بإذن الشيخ، وذلك لأن طريق القوم ليست بالرهبانية ولا بأكل الشعير غير منخول وإنما الطريق حفظ المريد أوقاته عن الضياع في اللهو والغفلة، وعدم الملل من العبادات، فإن طريق القوم جهاد لا صلح فيه.

قال سيدي علي الخواص رحمه الله: وإنما لم يأمر القوم المريد في بداية أمره أن يطلق زوجته أو يترك حرفته أو وظيفته، لأنه في مقام التأليف؛ فلذلك لم يأمروه بما يشق على نفسه عادة، وأخذ يعمل على حذف العلائق شيئاً بعد شيء، حتى ينكشف حجابه ويكون هو الخارج عن أمور الدنيا بانشراح صدر لما يرى لنفسه في ذلك من الحظ والمصلحة.

وكان سيدي أبو الحسن الشاذلي رحمه الله يقول: من علامة المريد كثرة العمل على الصدق والإخلاص وعدم طلب العوض على عبادته من الله، فإن عبد الأجرة لا قيمة له، ولا يمكنه المؤجر من الدخول على حرمه في غيبته، وبمجرد ما يأخذ أجرته يفارق السيد ويذهب، ولا هكذا عبد الرق.

وكان يقول: إن الله تعالى لا يعطي الكرامات لمن طلبها أو حدَّث بها نفسه، ولو أن القوم أحبوا أن يُعرفوا ما عُرفوا.

وكان يقول: متى أقبل المريد على الوقوف مع مراعاته من الخلق قبل بلوغه درجات الكمال سقط من عين رعاية الله عز وجل، ومتى أصغى إلى مجرد مدح الناس له فتلذذ أهلِكَ مع الهالكين.

وكان يقول: إذا غفل المريد عن ذكر الله نفساً واحداً صحبه الشيطان فهو له قرين، إذ الشيطان بالمرصاد لمن أقبل على الله عز وجل فهو واقف تجاه قلبه فمتى رأى الغفلة دخلت قلبه دخل، ومتى رأى الذكر دخل قلبه خرج، فمن لم يداوم على ذكر الله تعالى فهو ملعبة للشيطان، وإذا كان الشيطان يدنس قلب المريد وينجسه إذا دخل في النهار مرة واحدة، فكيف بقلب باض الشيطان فيه وفرّخ أو كان مريد طول نهاره يدخل فيه الشيطان ويخرج، فضلاً عن كونه مستقراً فيه؟

ومن شأنه أن لا يتقلق من تنكرات الأحوال عليه أول دخوله في الطريق، فكثيراً ما تتحول الدنيا من يد المريد أول دخوله الطريق فربما قال ولو في نفسه: ما كان لي حاجة باتباع طريق الفقراء، فينتقض عهده فلا يفلح بعد ذلك.

وكان الشيخ أبو الحسن الشاذلي رحمه الله يقول: إذا ضيق الله عليك أيها المريد وسد عليك أبواب الرزق وقسى عليك قلوب عباده، فاعلم أنه يريد أن يواليك فاثبت ولا تضجر.

وكان يقول: بصيرة المريد كالبصر أدنى شيء يقع فيها يعطل النظر.

وكان يقول: كل مريد ادّعى فتح بصيرته وعنده بقية طمع فيما بأيدي الناس فهو كاذب، فإن من فتح الله عين بصيرته لا يصح أن يعلق قلبه بمخلوق، لأنه يجد الخلق كلهم فقراء لا يملكون شيئاً مع الله تعالى.

وكان يقول: لا يترقى مريد قط إلا إن صحت محبة الله له، ولا يحبه الله حتى يبغض الدنيا وأهلها ويزهد في نعيم الدارين وفي كل شيء يشغله عن مشاهدة ربه.

فعلم أن كل مريد أحب الدنيا فالله يكرهه على حسب محبته لها كثرة وقلة، وكل مريد أحب نعيم الآخرة سوى شهود الحق واقتصر على ذلك النعيم بقلبه، حجب عن الله عز وجل، فإن نهاية الدار الآخرة أن فيها الأكل والشرب واللباس والنكاح وغير ذلك كعلف الدابة حقيقة، فليقدر العبد نفسه دابة، فإنه يجد سيده لا ينساه فهو حاصل له، وطلب الحاصل تضييع للوقت، إنما الشأن أن يطلب مجالسة ربه عز وجل في الدنيا والآخرة، فهذا هو النعيم المطلوب للعارفين في الدارين.

فلولا مشاهدته تعالى في العبادات ما أحبوها، ولولا مشاهدته في الجنة ما أحبوها،

فهي محبوبة لما فيها من المشاهدة لا لغيرها.

متى يكون المريد صادقاً

وكان يقول: لايصح لعبد مجالسة الحق جل وعلا في الدنيا والآخرة وهو يميل إلى شيء من الكونين، فإنه لا يجالس الله إلا عبد الله، وأما غيره فهو مجالس لما أحب من الأكوان لا يرقى عن ذلك.

وكان يقول: حيث أطلقنا نعم الدنيا فالمراد بها المال، والطعام، والكلام، والمنام. فالمال يطغي، والطعام يقسي، والكلام يلهي، والمنام ينسي.

وكان يقول: أبق لك أيها المريد شيئاً من الدنيا يكفيك عن سؤال الناس وعن أكل الصدقات، ولا تسرف في ترك الدنيا بالكلية فربما تغشاك ظلتها وتنحل أعضاؤك لها قهراً فترجع لمعانقتها بعد الخروج منها، إما بالهمة، أو بالفكرة، أو بالإرادة، أو بالحركة.

وكان يقول: خصلتان إذا فعلهما العبد صار عن قريب إماماً يقتدي به الناس، وهما: الإعراض عن الدنيا، واحتمال الأذى من الإخوان مع الإيثار.

وكان يقول: كل مريد تهاون بارتكاب معصية واحدة لا يجيء منه شيء في الطريق، وربما ردّته تلك المعصية إلى حالة أنزل مما كان فيه قبل دخوله الطريق.

وكان يقول: لا يكون المريد صادقاً حتى يترك المعاصي جملة وتفصيلاً ويترك الميل إلى الدنيا صورة وتمثيلاً.

وكان يقول: من أضر شيء على المريد الإكثار من الأعمال الصالحة ليحمد على ذلك فلا يزداد بكثرتها إلا طرداً ومقتاً، وهذا أمر يخفى على كثير من المريدين، قال: ومن هنا أوجبوا اصطلاحاً على المريد الإسرار بأعماله حسب الطاقة حتى يقوى ويتمكن.

وكان يقول: ربما فعل المريد أمراً يحمد عليه ولا يقصده فيظن أنه مخلص فيه والحال أنه من وجه آخر مُراء، وذلك كأن يرد مثلاً ما يعطيه له الناس تعففاً، فيحمده الناس على ذلك، فيصغي إلى مدحهم فيرجع عمله إلى الرياء ولو لم يقصد ذلك أولاً.

وكان يقول: من ادعى أنه خلص من محبة الحمد على الطاعات فليمتحن نفسه بما لو ذمه الناس، فإن تغير للذم فهو يتغير للمدح.

إياك والاعتراض

وكان يقول: من أضر شيء على المريد الصادق اعتراضه على أحوال الرجال، ومن ابتلاه الله تعالى بذلك فلا بد أن يموت قبل أجله ثلاث موتات: موتة الذل، وموتة الفقر، وموتة بالحاجة إلى الناس، ثم لا يجد من يرحمه منهم.

وكان يقول: إذا كان المريد الصادق يعمل على الوفاق، ولا يسلم من النفاق، فكيف بالكاذب الذي يعمل على الخلاف؟

وكان سيدي أبو العباس المرسي رحمه الله يقول: من علامة حب المريد للدنيا أن يخاف من مذمة أهلها، ولو كان زاهداً فيها لما تأثر من ذم أهلها.

ومن شأنه أن يكون ورعاً عن الحرام والشبهات في مأكله، وملبسه، ومنطقه، وسمعه، وبصره، ويده، ورجله، وقلبه، وفرجه، وعمدة ذلك كله الورع في اللقمة، لأن الأعمال تنشأ من جوارح العبد على صورة اللقمة في الحل والحرمة، فلو أراد من أكل الحلال أن لا يعصي لما قدر، ولو أراد آكل الحرام أن يطيع لما قدر.

وقد كان إبراهيم بن أدهم يقول: أطب مطعمك، ولا عليك بعد ذلك أن تصوم النهار ولا تقوم الليل - يعني نفلاً - وليحذر المريد أن يتورع رياءً وسمعة فإنه لا يزداد بذلك إلا مقتاً.

وكان سيدي أبو العباس المرسي يقول: ورع المريد المنقطع ينشأ من سوء الظن بالمسلمين، وورع المريد الصادق ينشأ من النور الذي في قلبه.

وكان يقول: والله ما رأيت المريد إلا في دفع همته عن ما بأيدي الخلق. قال: ولقد رأيت يوماً كلباً وأنا مريد ومعي شيء من الخبز، فوضعته بين يديه فلم يلتفت إليه، فإذا بقائل يقول لي في سري: أفّ لمن يكون الكلب أزهد منه!!!

وكان يقول: إياكم أيها المريدون أن تقعوا في حق أحد من أقران شيخكم، فإن لحوم الأولياء سم ولو لم يأخذوكم، وإياكم ثم إياكم من الاستهانة بغيبة أحد إذا لم تبلغه تلك الغيبة، بل خافوا منها أكثر مما تخافون إذا بلغته فإن وليه الله حينئذ.

ومن شأنه أن لا ينظر إلى زلاته السابقة قبل دخوله في الطريق، ويقول في نفسه بعيد على مثلي أن يفتح عليه ويصير صالحاً؛ فإن ذلك من أكبر القواطع، ومن أعون الأمور لإبليس.

وكان سيدي أبو العباس المرسي رحمه الله يقول: لا ينبغي للمريد أن ينظر إلى زلاته

السابقة ويقنط من حصول الفتح ، فإن كثيراً من أهل الطريق تقدم لهم زلات ثم تابوا وصاروا من الأولياء.

وكان يقول: من أتى الطريق بانكسار خاطر كان أسرع فتحاً ممن أتاها وهو قائم الصدر بما تقدم له من الطاعات، ولذلك بدأ الإمام القشيري في ذكره رجال القوم الجامعين بين الحقيقة والشريعة بالفضيل بن عياض وإبراهيم بن أدهم لكونهما كان تقدم لهما زمن قطيعة، فلما أقبلا على الله أقبل الله عليهما، فبدأ بهما رحمه الله تنشيطاً وتقربة لرجاء المريدين الذين تقدمت لهم الزلات والقطيعات.

وكان يقول: عمل المريد قليلاً مع شهود المنة لله تعالى خير من كثير من العمل مع شهوده غير ذلك.

وكان يقول: عليك أيها المريد بالاشتغال بعلم الشريعة وقراءته على العلماء الجامعين بين العلم والعمل، ولا تكن كالعبّاد والزهاد الذين خرجوا من هذه الدار وقلوبهم في حجاب عن الأدب في عباداتهم مع ربهم.

وكان يقول: كل مريد لم يتغلغل في علوم الشريعة قبل موته ربما مات مصراً على الكبائر، كدقائق العجب والرياء والنفاق، وهو لا يشعر.

وكان يقول: إياكم والاعتراض على من رأيته سميناً، فإن الحب إذا تمكن من العبد سمن.

وكان الشبلي سميناً جداً، وإذا قيل له في ذلك يقول: كلما أتذكر أنا عبد مَنْ، أزداد سمناً.

ودخل مريد مرة على شيخ سمين فوجده يزهد المريدين في الدنيا، وهو كالدب من السِّمَن، فكاشفه الشيخ، وقال: وعزته تعالى ما سمَّنَني الأكل وإنما سمَّنني حبه وتعالى.

العبادة والفتح

ومن شأنه أن لا يستبطىء الفتح عليه بل يعبد الله تعالى لوجهه الكريم سواء أفتح عين قلبه ورفع عنه الحجاب أم لا فإن العبادة من شروط العبودية. وقد كان الشيخ محيي الدين بن العربي رحمه الله يقول: إياك أن تترك المجاهدة إذا لم تر أمارات الفتح، بل دم على المجاهدة فإن الفتح بعدها أمر لازم لا بد منه، تطلبه الأعمال وتناله الأنفس، ولكن للفتح وقت لا يتعداه، فلا تتهم ربك فإنه لا بد لأعمالك من الثمرة إذا كنت مخلصاً وارفع من نفسك التهمة لربك

جملة واحدة، وفر من أن تكون من أهل التهم. ذكره في الباب الرابع والمائتين من الفتوحات.

وكان الشيخ داود بن باخلا شيخ سيدي محمــد وفا يقول: احذر أيها المريد أن يكون قصدك من ذكرك وعبادتك، الأجر والثواب، فإن ذلك حاصل لك لا محالة، وإنما ينبغي أن تكون همتك في التلذذ بمناجاته ومن يريد الفوز بمجالسة السلطان لا ينبغي له الاهتمام بما يأكل ويشرب ما دام في خدمته.

وكان يقول: إقبال المريد بقلبه لحظة مع قول «لا إله إلا الله» خير له من ملء الأرض عبادة مع الغفلة عن الله.

وكان يقول: إذا نـظر المريـد بقلبه إلى الـدنيا نـظر شهوة بعـد أن خرج منهـا عوقب بالحجاب، أو بالحساب، أو بالعذاب.

وكان يقول: لو علمت نفوس المريدين قدر ما تدعى إليه لكانت تسابق داعيها إليه.

وكان يقول: ما من وقت جديد إلا وينزل فيه مدد جديد يتلقاه أصحاب الهمم العوال من المريدين.

مراحل المريد

وكان يقول: المريد أولاً يسمع، وثانياً يفهم، وثالثاً يعلم، ورابعاً يشهـد، وخامساً يعرف.

وكان يقول للمريد: إن كان لك يا ولدي في الوصول نية، فلا يبقى فيك من الخلاف بقية.

وكان يقول: لا يظهر جوهر باطن المريد إلا وجود امتحانه.

وكان يقول: من شرط المريد الصادق أن لا ينقل قط قدمه إلى حظ من حظوظ نفسه فإن صدق الإرادة يذهب من القلب كل شهوة.

وكان يقول: المريد الصادق سيره بباطنه، وظاهره تبع، والعابد سيره بظاهره، وباطنه تبع.

وكان يقول: إذا انقاد المريد للشيطان في معصية فلم يصر عليها بل تاب ورجع فكأنه لم ينقد له.

وكان يقول: إياك أيها المريد أن تطلب أحداً من الخلق لا يؤذيك فإن الله تعالى لولا أراد

ستر أوليائه ما سلط عليهم من يؤذيهم وينقصهم في المجالس ويستهزىء بهم، ثم إنه تعالى لا بد أن ينتصر لأوليائه وينتقم ممن آذاهم ولو لم يطلبوا من الله ذلك.

وكان يقول: رأس مال المريد في وجود إقباله على أفعال القوم.

وكان يقول: عمل المريد على استنارة قلبه خير له من إكثار العمل.

وكان يقول: لو باشر صريح الحقائق قلب المريد الصادق، لم تسعه الأكوان.

وكان يقول: من أحسن الأنوار نور يرد على قلب المريد لا يتدنس بظلمة الدعوى.

وكان يقول: من أراد من المريدين أن لا يفزع يوم القيامة من النفخ في الصور فليكابد الليل في العبادات.

وكان يقول: ما أعز طريق القوم، وما أعز من يطلبها، وما أعز من يجد من يدله عليها، وما أعز من يثبت عليها يبلغ مبلغ الرجال.

وكان يقول: اعمل أيها المريد، اعمل على مخالفة نفسك ما استطعت حتى تركبها بعد أن كانت راكبة لك، فإن النفس إذا اعترضت للمريد الصادق أوقفته عن مزيد الأذكار وتحصيل الطاعات، فكيف إذا اعترضت للكاذب؟

ومن شأنه أن يلازم الزهد في الدنيا فإنه أساسه الذي يبني عليه جميع أحكام الطريق إذ الراغب في الدنيا لا تفتح له أعمال الآخرة.

أساس الطريق

وقد كان سيدي أحمد بن الرفاعي رحمه الله يقول: أول أساس يضعه المريد الصادق في الطريق: الزهد في الدنيا، فمن لم يزهد في الدنيا لا يصح له بناء شيء بعده.

وكان يقول: لا يكون المريد صادقاً حتى يسأل الله تعالى بتوجه قلب تام أن الله تعالى يحول عنه كلَّ ما يشغله عنه من مال وولد، ويفرح بالفقر إذا أقبل.

وكان يقول: لا يصل أحد إلى صفاء المعاملة مع الله تعالى حتى يترك حظوظ نفسه في الدنيا والآخرة، ويعبد الله تعالى امتثالاً لأمره ومحبة لمشاهدته.

وكان يقول: من أقبح ما يقع فيه المريد خوضه في الكلام على الذات والصفات الإلهية، وإذا كان العارف بالله تعالى سكوته على ذلك أفضل فكيف بالمريد؟

وكان يقول: ملتفت لا يصل ومتسلل لا يفلح، ومن لم يعرف من نفسه النقصان فكل أوقاته نقصان.

وكان يقول: أكره للمريد دخول الحمام ترفهاً، ولبس الثياب النقية البيض، وأحب له: الجوع، والعري، والفقر، والذل.

وكان يقول: لا ينبغي للمريد أن يلبس الصوف حتى يفرغ من تهذيب أخلاقه.

وكان إذا رأى على مريد جبة يقول له: انزعها يا ولدي حتى تفرغ من جهاد نفسك وإزالة رعوناتها، إن الصوف لباس الأنبياء، وحلية الأصفياء، فمن لم يتخلق بأخلاقهم فليس له أن يلبس كلباسهم، ولا يتحلى بحليتهم، فإن ذلك كالاستهزاء بهم، كما فعل أهل السخريا.

وكان يقول: كل مريد جلس في لغو، فقال له أخوه: قم من هذا المجلس، فلم يسمع إلى قوله، فاعلموا أنه لا يجيء منه شيء في الطريق.

وكان يقول لتلامذته: عليكم يا أولادي بالاستيقاظ أول الثلث الأخير من الليل، ولا تفرطوا في ذلك، فإنه ما من ليلة من ليالي السنة إلا وينزل فيها نثار من السماء في الثلث الآخر من الليل، مشتملة على أمداد إلهيّة تحيي القلوب، فيتفرق على المستيقظين، ويحرم منه النائمون.

وكان يقول: من شرط المريد الصادق أن لا يكون له نظر في عيوب إخوانه، ولا يتجسس، على أن يحيط علماً بمن وقع في زلة ولاث الناس بعرضه.

وكان يقول للمريد: من تتلمذ عليك من إخوانك فتتلمذ له، يعني أن تسمع نصحه ولا تخالفه، فإن مدّ لك يده لتقبلها فقبل رجله، ومن تقدم عليكم في البداءة في الذكر مثلاً فقدموه ولا تظنوا به إلا خيراً فربما كان قصده بالبداءة بالذكر تعجيل رضى الله عنه لا حظّ النفس، وهذا واجب على المريد أن يظنه بأخيه، واعلموا أنه ما دام أحدكم يسيء الظن بأحد من الخلق فهو دليل على نجاسة باطنه.

وكان يقول: يجب اصطلاحاً على المريد أن يتفقد نفسه في كل خير ينبه إخوانه عليه، ولا يأمر أحداً بخير إلا ويلزم نفسه أن يتخلق هو به قبله، لئلا تسرقه الرئاسة فيهلك.

وكان يقول للمريد: اصبر على قرصة البرغوث والقملة والعقرب ليحصل لك الإدمان على تحمل الأذى من غيرهم أو على عقارب القبر إن وقعت المؤاخذة.

ورأى مرة مريداً يقتل قملة أو برغوثاً، فقال له: كيف تطلب طريق أهل الله تعالى وأنت

تشفي غيظك، تقتل القملة ولا تحتمل قرصتها؟

ومن شأنه أن يلازم ما أمره به شيخه، ولا يقيد بأفعال شيخه كلها، إلا إذا كان أمره بذلك، فإن مشاهد الأشياخ لا يدركها المريد، فليحذر المريد من عدم خروجه لصلاة الجماعة أو مجلس الذكر إذا لم يخرج الشيخ لذلك، فربما كان ذلك من الشيخ لثقل وارد ورد عليه، فمنعه من القدرة على الخروج والمشي، بخلاف المريد، فربما كان ذلك منه نفاقاً وكسلاً، ووالله إني لأتكلف الخروج لصلاة الصبح حتى أخرج أجرّ رجلي جراً من ثقل واردات الليل ولا أتخلف، خوفاً على أحد من الإخوان أن يقتدي بي في ذلك فيهلك ولا يشعر بذلك.

ومن شأنه أن لا يتبع ما عليه بعض المريدين مما أمره به شيخه، لأن لكل مريد عملاً يناسب حاله، متى خالفه انعكس عليه السير.

ومن شأنه أن يسد على نفسه باب أكل الشهوات وملابستها حتى النوم إلا غلبة، ولا يرخص لنفسه في ذلك.

فقد كان سيدي عبد القادر الجيلي رضي الله عنه يقول: من شرط المريد الصادق أن لا تحكم عليه شهوة، إنما الشهوة للعوام.

وكان يقول: قاسيت الأهوال في بدايتي، وما تركت هولاً إلا ركبته، وكان لباسي جبة صوف، وعلى رأسي خُريقة، وكنت أمشي حافياً في الشوك وغيره، وكان قوتي قمامات البقل، وورق الخس، من شاطىء النهر، ولم أزل آخذ نفسي بالمجاهدة، حتى طرقني من الله تعالى الحال الذي يطرق القوم.

وكان يقول: لقد تظاهرت بالخرس والجنون مراراً لتنفر الناس عني ولا يشغلوني عن ربي عز وجل، وحملت مراراً إلى المارستانا[1] وأقمت في صحراء بغداد والعراق وخرائبها نحو خمس وعشرين سنة على التجريد والسياحة حتى كنت لا أعرف الخلق ولا يعرفوني. قال: ومكثت سنة لا آكل ولا أشرب ولا أنام، واحتلمت في ليلة واحدة أربعين مرّة، وكانت ليلة باردة، فكنت أغتسل عقب كل مرة حياءً من الله تعالى.

ويقول: ربما كان ذلك من الله تعالى امتحاناً لي، هل أجلس بين يديه جُنُباً مترخصاً أو أعظّم حضرته عن ذلك، فإن المريد ربما اغتسل في بعض هذه الاحتلامات إذا وقعت له دون بعض مترخصاً، ويقول: ليس هذا وقت صلاة.

---

(١) مستشفى المجانين.

وكان يقول: جلوس الأشياخ على بساط الظلمة يطفىء نور قلوبهم فكيف بالمريد؟

وكان بعضهم يرى النبيّ ﷺ كل ليلة فجلس على بساط شخص من الولاة فانقطعت عنه الرؤية، وصار يراه ﷺ بعيداً، فمشى وراءه زماناً، وقال:

يا رسول الله ما ذنبي؟

فقال: تجلس على بساط الظالمين وتطلب الاجتماع بي؟ هذا أمر لا يكون.

وكان رضي الله عنه يقول للمريدين: اجتمعوا على مجلس الذكر ولا تفرقوا، ولا يقرأ أحدكم وقت مجلس الذكر، ولا يكتب، ولا يخبط، ولا يعمل شيئاً في الزاوية من أعمال الدنيا مطلقاً، إلا لضرورة، كخياطة ثوب فقير لله تعالى، ونحو ذلك، فإن المطلوب من الفقراء تكثير سواد الذاكرين، والتفرقة عنهم لأمر آخر تضعف قلوب الذاكرين، وتفتر همتهم.

وكان يقول للمريدين: خافوا ولا تأمنوا، وفتشوا في اللقمة وغيرها من أحوالكم ولا تغفلوا.

وكان يقول للمريدين: تطهروا من سائر الزلات إن طلبتم أن تكونوا ممن يجالس الحق جل وعلا، وكل من لم يتطهر من ذنوبه بالتوبة الخالصة طهره الله تعالى بالأمراض قبل موته إن اعتنى به وإلا طهره بالنار.

وكان يقول: من أراد الآخرة فعليه بالزهد في نعيم الآخرة، أي فيعبد الله تعالى امتثالاً لأمره وحباً في مجالسته لا غير.

ومن شأنه أن يحن إلى دخول الليل لأجل قيامه لا لأجل النوم.

فقد كان الشيخ أبو محمد الشنبكي أحد أصحاب سيدي الشيخ عبد القادر الجيلي يقول: شهوة المريد الصادق المجاهدة والمكابدة، فهو يقول: متى يدخل الليل حتى أسهر! وشهوة المريد الكاذب النوم والكسل.

وكان يقول: إياك أيها المريد أن تأكل من طعام من ارتد عن طريق القوم ولو ضعفت من الجوع فمن أكل من طعامه قسى قلبه أربعين يوماً.

وكان يقول: ما ابتلي مريد بشيء أشد عليه من الغفلة عن الله عز وجل ولكن إذا أحب الله تعالى عبداً قاده إلى حضرته في الغفلة والمنام فلم ينقص له أجراً بذلك.

وكان يقول: كل مريد تساهل بالغفلة عن الله ولم يكن أشد عليه من ضرب السيوف، فهو

كاذب في طريق الإرادة لا يجيء منه شيء، لأنه سالك بغير تعظيم الله عز وجل فيطول تعبه من غير ثمرة، ثم يرجع من حيث جاء.

وكان يقول: كلما علت درجة المريد كانت العقوبة إليه أسرع، فمن زلّ ولم يعاقب على ذلك فانفضوا يدكم منه فإن الله تعالى لم يقربه من حضرته.

وكان يقول: طريق المريد لزوم الجد حتى يسعد فإما أن يبلغ الفتى مناه وإما أن يموت بداه.

وكان يقول: من جهل المريد أن يسيء فلا يقطع الله عنه الأمداد فيقول في نفسه: إنه غير مؤاخذ؛ وذلك استدراج لأنه في زمن الإساءة في حكم المغضوب عليه، وقد أجمعوا على أن فقد المريد الأسف والبكاء إذا زل علامة من علامات الخذلان.

شرط المريد الصادق

وكان يقول: من شرط المريد الصادق أن لا يهدأ له شوق إلا بلقاء الله تعالى، واللقاء يكون في الدنيا، والبرزخ بالمشاهدة بالقلب، وفي الآخرة بالنظر بالعين الظاهرة.

وكان يقول: كفى بالمريد جهلاً أن يعجب بأعماله قالوا: وإنما كان عجبه جهلاً لأنه يريد أن يغطي بالعجب عيوب نفسه وهي لا تتغطى.

وكان يقول: لا يصدق المريد في إرادته حتى ينسلخ من صفات نفسه الردية كلها.

وكان يقول: كل مريد تهاون بحضور مجالس ذكر الله كسلاً أو لهواً بحديث الدنيا فلا بد أن يكشف الله تعالى عيوبه على لسان نفسه.

وكان يقول: إياكم أيها المريدون ومحاكاة كلام أرباب الأحوال قبل أن تبلغوا مبلغ القوم فإنها تقطعكم عن السير في الطريق لظنكم أنكم صرتم مثل الأشياخ.

وكان يقول: من علامة تخليطك أيها المريد صحبتك للمخلطين ومن علامة بطالتك صحبتك للبطالين.

وكان يقول: من علامة المريد الصادق ملازمة السنة والفريضة في اصطلاحنا، فالسنة تركه للدنيا، والفريضة دوام ذكر الله تعالى.

وكان يقول: كل مريد أطلق لسانه في أحد من أهل الله عز وجل ابتلاه الله تعالى بانعقاد لسانه عن النطق بالشهادتين عند الموت.

وكان يقول: خصلتان إذا كانتا في مريد حرم الوصول سوء الطعمة وإيذاء الخلق.

ومن شأنه إظهار الذلة والانكسار، ولباس الخليقات الوسخة إذا هجره إخوانه فتحاً لباب الرقة والخير عليه، وإذا حضر عليه مجلس الذكر فليجلس بحاشيته ولا يدخل الحلقة، ولا يفتح مجلس الذكر ولو كان ذلك من عادته قبل أن يهجروه، إذ الواجب عليه العمل على كسر نفسه. وسمعت سيدي علياً المرصفي رحمه الله يقول: من علامة المريد الصادق أن يكون مع إخوانه على نفسه، ويزداد لهم محبة كلما أطالوا هجره، لما في ذلك من مساعدة له على هدم نفسه.

ومن شأنه أن يكون عمالاً بروحه أو جسده على الدوام لا يفتر عن ذلك.

وكان الشيخ نجم الدين البكري رضي الله عنه يقول: من شأن المريد أن يكون زاده التقوى، وبضاعته الإفلاس، وسفره إلى الآخرة، ومراحله الأنفاس، ومنازله القبر، وصاحبه اليقين، وتدبيره العجز، وحركاته السكون، وبيته الخلوة، ولباسه الفقر، ونومه محاسبة العمر، وركبته وسادته، ومسجده مجلسه، إن درس فعلوم الحكمة، وإن نظر فنظر العبرة، رفيقه التوفيق، وسمته حسن الخلق، ومعلمه القناعة، وصومه الصمت، وهمته خوف النار، وفرحه بالله لا بالجنة، وصحته اليأس من الخلق، كما أن مرضه الطمع فيهم، وواعظه الموت والمقابر والأيام والليالي، ومطْربه الحزن على تفريطه في أوقات عمره في غير مرضاة الله، ونيته الجازمة رفض الدنيا أبداً ما عاش، وسلاحه الوضوء، ومركبه الورع، وخصمه النفس والشيطان، وسجنه الدنيا، وسجّانه الهوى، ليله تضرع، ونهاره استغفار، وحصنه دينه، وشعاره شرعه، ومحدثه كتاب ربه، ورأس ماله حسن الظن بربه، وحرفته كثرة الصلاة على رسول الله ﷺ الذي هداه الله به، فهو الشيخ الحقيقي له ولجميع الأمة، فهذا هو المريد الصادق.

وكان يقول: من شرط المريد الصادق أن يكون خوفه من رد عمله الصالح عنده أكثر من خوفه من معاصيه الظاهرة.

وكان يقول: من شرط المريد الصادق أن يستوي قلبه مع لسانه في كل مرة من الذكر، لا يعقب قلبه في مرة عقوبة واحدة، وأن تمتلىء عروقه كلها من محبة ذكر الله عز وجل، ومع ذلك فلا يرى لنفسه قيمة، بل يراها لا تصلح لخدمة ربه عز وجل، إلا بتأهيله لها.

وكان يقول: من شرط المريد الصادق أن لا يكون بينه وبين أبناء الدنيا مصادقة، ولا مصاحبة، ولا مجالسة، إلا بقدر الضرورة الشرعية، فإن محبة طريق الله تعالى لا تدعه يميل إلى غيرها.

وكان يقول: ما أحب طريق الله تعالى صادق إلا صار يبغض الدنيا وطلابها، لكونها تحجبه

عن الله، ويحبّ الموت لأجل لقاء الله.

وكان يقول: من شأن المريد الصادق محبة العزلة عن الناس، واستغناؤه الجلوس في البراري والمواضع الخربة، حتى يتقوّى ويصير لا يتدنس بالأغيار.

ومن شأنه استواء المدح والذم عنده من الناس، والخير والشر عنده من الله عز وجل، فيرضى بالقضاء لا بالمقتضا، وكذلك يرضى عن الله عز وجل في استواء المنع والعطاء، وذلك من علامة إخلاصه وعبادته ربه بلا علة.

وكان يقول: من شرط المريد الصادق أن لا يجري على لسانه إلا ذكر الله أو ذكر الموت وهول المطلع، وأحوال أهل الجنة، وأحوال أهل النار، لا يكاد أمله يجاوز وقته، لا يقف مع شيء من أمور الدنيا والآخرة دون الله، لأنها كلها مناهل في الطريق، والمطلوب من ورائها هو رضى الله عز وجل لا غير، لا يغفل عن السعي في كمال تطهيره من نجاسات الدنيا وشهواتها، ولا عن التجرد عن سائر الزلات والغفلات، حافظاً للشريعة عاملاً لها قولاً وعملاً واعتقاداً، لا يزيغ عنها طرفة عين.

وكان يقول: المريد الصادق يحب الخلوة البعيدة عن مرور الناس كخلاوي السطوح ويحب أن تكون ضيقة حتى لا يصح له مد رجله فيها ويحب أن تكوم مظلمة لا يدخلها نور الشمس، ولا ينبغي له أن يعوّد نفسه قط بيات طعام عنده ولا نقد، بل يصبر لصلاة العشاء، فإن لم يجد من يقبله منه أخرجه من خلوته لكل من وجده وذلك أكمل في استعداده وحصول فتحه.

وكان يقول: من شرط المريد أن لا يفتر عن الذكر، حتى يقوى ويحصل له منه حال، فتارة يأخذ لسانه من قلبه وتارة يأخذ قلبه من لسانه، ويواظب على السنن وركعتي الضحى، وركعتي سنة الوضوء، ويستعمل الطيب والبخور لمجلس الذكر ما استطاع، ولا يواظب على أكل الدسم فيظلم قلبه، بل يستعمل الدسم كل سبعة أيام أو ثلاثة أيام مرة، ويأكل منه قليلاً وليحذر من غرور نفسه ما استطاع، فإن من شأنها أن تحب الشر وتكره الخير، وتخالف العقل، وتوافق الهوى.

صور من أمراض النفس

وكان يقول: النفس إذا جاعت فهي كالطفل الضعيف، وإذا شبعت فهي كالأسد المفترس، وإذا غضبت فهي كالملوك الجبابرة، وإذا اشتهت شيئاً فهي كالبهائم، وإذا خافت

من شيء فهي كالهرة، وإذا أمنت فهي كالنمر، وإذا عصت فهي كالشياطين، وإذا سكنت فهي مثل الجماد.

وكان يقول: ليحذر المريد للصلاح والخير من البكاء تكلفاً بحضرة الناس فإن ذلك كله نفاق، وهذه الأمور ربما تكون أو بعضها في بعض الأوقات شراً من شرب الخمر، فضلاً عن بيع الحشيش، أعاذنا الله من شرور أنفسنا أبداً ما عشنا آمين.

وكان يقول: من شرط المريد الصادق أن يرى نفسه كأنه محل للأرجاس، ومقامه دائماً تحت أقدام الناس.

وكان يقول: من أعظم أخلاق المريد التحمل لأذى الناس، وكظم غيظه ما استطاع، فإن كل من لم يحمل كظم الغيظ فلا بد من وقوعه في ذلّ الاعتذار.

ومن شأنه أن يجعل قلبه دائماً متوجهاً إلى الله وحده دون شيء من أمور الدنيا والآخرة. ومعلوم أن ذلك لا يصله إلا بعد رياضة تامة، بحيث لا يصير له التفات إلى حظ من حظوظ الدنيا والآخرة.

فقد كان الشيخ أبو مدين المغربي رضي الله عنه يقول: ليس للقلوب إلا وجهة واحدة، متى توجه إليها حجب عن غيرها، فإن توجه للدنيا حجب عن الآخرة، وإن توجه للآخرة حجب عن الدنيا، وإن توجه إلى حضرة الله حجب عن الدارين.

وكان يقول: كل مريد لا يخلع العذار، لم ترفع له أستار.

وكان يقول: أضر شيء على المريد صحبته للأحداث المبتدئين في الطريق، فإنه يتمشيخ عليهم فينقطع عن السير، لأن تربية المريدين إنما هي للأشياخ الذين خمدت بشريتهم، وتمت مجاهداتهم، وأما صحبة الأحداث للفساد فذلك أمر خارج عن طريق القوم جملة واحدة.

وكان يقول: من شرط المريد أن يعرف زيادته ونقصه، وذلك ليجدّ في العمل كلما طرقه الكسل.

وكان يقول: طلب المريد لطريق القوم من غير توبة جهل عظيم.

وكان يقول: المريد الصادق مشغول عن محادثة إخوانه من أهل الطريق، فكيف بأبناء الدنيا؟

وكان يقول: من شأن المريد أن يكون يقظاً لما يبدو منه في حق نفسه وغيره، فلا يشغل

أخاه عن ربه عز وجل، فإن من أشغل مشغولاً بربه أدركه المقت في الوقت.

كيف يصل المريد إلى حضرة الحق؟

وكان يقول: من أقرب رحلة تكون للمريد إلى حضرة الحق الخاصة دوام الذكر، فقد أجمعوا على أن من دامت أذكاره صفت أسراره، ومن صفت أسراره كان في حضرة الله قراره.

ومن هنا يقول بعضهم: منذ ثلاثين سنة لم أخرج من حضرة الله عز وجل.

ومن شأنه إذا رأى أحواله في الخير تناقصت، وهمته في الطريق قد ضعفت، فليخرج من بين إخوانه، أو يحذرهم من حاله، ويحرم عليه أن يحجب عن نفسه، لأنه يتلفهم بذلك، ويرجع إصر ذلك عليه.

الشيخ أبو الحجاج الأقصري ينصح المريد

وقد كان الشيخ أبو الحجاج الأقصري رضي الله عنه يقول: إذا وجد المريد من نفسه عدم الصدق في طلب الطريق، فالواجب عليه الخروج من بين الفقراء، فإن لم يخرج كان إثم فتور عزمهم عليه لنظرهم إليه، وسرقة الطباع السيئة منهم، وكل من زعم أن طبعه لا يسرق كذبناه لأن ذلك لا يكون إلا لمن لا تطرقه غفلة عن الله كالملائكة.

وكان يقول: كل مريد كان عنده حسد لأحد من إخوانه فلا ترجوا له ارتقاءً أبداً إذ الحسود لا يسود.

ثم يقول: والله لقد كنت أجيء أنا وأخي الشيخ أبو الحسن بن الصايغ بالإسكندرية إلى شيخنا فأرى مقامي يعلو مقامه فأتكدر وأقول: اللهم أعل مقامه فوق مقامي، وهكذا كان الآخر يقول في غيبتي.

هكذا درج القوم لا غلّ بينهم ولا حسد ولا حقد، رضي الله عنهم أجمعين.

وكان يقول: المريد الصادق لا يرجع عن الطريق ولو قاسى كل الأهوال.
فقد قالوا: من خطب نفيساً، خاطر بنفيس.

قال: ولقد حصل عندي مرة فتور وكلال من طول مكابدة الليالي في الشتاء، فأعانني الله تعالى «بأبي جعران» وذلك أنني نظرت إليه وهو يجهد أن يصعد منارة السراج، لأجل القرب من النار، فلم يزل يزلق ويقع إلى الصبح لكونها ملساء، فعددت عليه تلك الليلة سبعمائة وقعة وهو لا يرجع.

فقلت في نفسي: سبعمائة وقعة وهو لا يرجع عن مطلوبه وأنت ترجع من دون ذلك! ثم خرجت إلى صلاة الصبح ورجعت فوجدته جالساً فوق المنارة بجانب الفتيلة فأخذت من ذلك ما أخذت، فكان ذلك من جنود الله لي، فالحمد لله على ذلك.

قال: وقد خطب مريد ابنة سلطان فقال السلطان: إنك لا تقدر على مهرها فقال له: وما مهرها؟ فقال: مائة جوهرة كل جوهرة بعشرة آلاف دينار فقال له: وأين محل تلك الجواهر؟ فقال للفقير: في بحر الظلمات، فأخذ المريد قصعته وذهب إلى ساحل بحر الظلمات، وصار ينضح منه بقصعته على البر فبلغ ذلك إلى السلطان، فأرسل وراءه وزوجه ابنته وأمهرها من عنده وجعله وزيراً له لعلو همته.

وكان يقول: إياك أيها المريد أن تطلب الوصول بأعمالك فإن الوصول لا يكون إلا بالأعمال التي خلصت من الرياء وسائر الآفات، وأي عمل خلص لك من ذلك حتى تطلب به الوصول؟ فالزم العمل على وجه العبودية، وإلا فاتك أدب الوقت ومدده.

وكان يقول: المريد الصادق لا يخوض قط في الذات، تعظيماً لجناب الله عز وجل.

وكان يقول: كل مريد سمعتموه يقول: حقيقتي الله، أو لا موجود إلا الله، فعرّفوه بذنبه، فإن لم يتب فاقتلوه، فإنه زنديق.

وكان يقول: من شرط المريد الصادق أن لا يشغل نفسه قط بالمبادرة إلى الإنكار على أحد من إخوانه بل شأنه حمل الناس على أحسن المحامل، وما دام يرى في أحد نقصاً فهو ناقص، وأما الأشياخ فإن رأوا في المريد نقصاً فإنما ذلك بإلهام من الله تعالى مصلحة له، لينقذوه من الآفات. وليس عندهم ازدراء لأحد من العصاة، لنظرهم المحكم إلى مجاري الأقدار في الخلق وعلامات حدنهم في براءتهم من السوء ظاهرة.

ومن شأنه أن لا يزاحم الرجال في الجلوس بل يجلس خلف الناس إلى أن يلتحي.

وقد كان الشيخ أبو الحسن بن الصايغ رفيق سيدي أبي العباس المرسي رضي الله عنه يقول: لا ينبغي للمريد إذا كان جميل الوجه لا لحية له أن يجلس قط مع الرجال إلا في حلقة الشيخ، ولا يكتحل بالمكحل الأسود ولا يتطيب ولا يلبس اللباس الفاخر، وإنما الأدب أن يلبس الثياب الخشنة، والمرقعات، لا سيما إن أقام في الزاوية.

وكان يقول: إياكم والتساهل بالنظر لشيء من الصور الجميلة فإن كل نظرة تورث في القلب حسرة وظلمة.

وكان يقول: من شأن المريد الصادق أن لا يمد يده للطعام إلا عند الضرورة، ولو كان

بين يديه طعام كأمثال الجبال، وإذا أكل لا يأكل إلا بقدر سد الرمق.

وكان يقول: فترة المريد بعد المجاهدة من فساد الابتداء.

وكان يقول: كل مريد انحطَّ من حقيقة العلم إلى ظاهر العلم فقد نقض عهده مع الله تعالى.

وكان يقول: كل مريد رجع عن طريق إرادته عذبه الله عذاباً لم يعذبه أحداً من العالمين. وذلك لعظم ما رجع عنه، ومن هنا غفر للكافر إذا أسلم ما سلف من ذنوبه لأنه لم يذق مقام الإقبال على الله عز وجل قبل إسلامه.

وكان يقول: المريد الصادق لا بد أن يترك الدنيا مرتين: الأولى يترك مطاعمها ونعيمها وجميع شهواتها، والثانية أن يترك جاهها وتبجيل الناس له لأجل بركتها، وذلك أنه إذا عرف بالزهد في الدنيا، عظمه الناس والملوك ضرورة، فيكون تركه لذلك أعظم من تركه الأول، لكن أخذ الدنيا بعد رميها بقصد السير، لا يكون إلا لمن لا أتباع له، أما من له أتباع فربما يتبعونه فيهلكون.

ومن شأنه أن لا يتقلّق قط من طول مجلس الذكر، بل يكون اليوم عنده في الذكر كاللمحة، وهذا لا يكون إلا لمريد قطع العلائق كلها، أما من يقرىء الأطفال أو يشتغل بالعلم فبعيد عليه أن لا يتقلّق من مجلس الذكر إذا طال، لا سيما إن كان ذلك الفقير قد سلك في تربية الأطفال مسلك المريدين في التربية، فإنه ينقطع عن السير بالكلية.

وقد كان الشيخ أبو الحسن بن الصايغ رضي الله عنه يقول: كل مريد اتخذ له مريداً ولو أن يُحفِّظه القرآن فقد قطع به عن مقام التحقيق، وطالت عليه الطريق.

وقد كان أحدهم يقرىء الطفل حتى تطلع لحيته لا يعلم بذلك إلا من الناس لغلبة الإطراق، ومع ذلك كانوا يخافون على أنفسهم من الميل إلى الصبي، لأجل الإرفاق الذي يحصل من أهله، وربما زاد الفقيه في إكرامه على من كان دونه في الإرفاق، فيرجع تعليمه للقرآن إلى طلب الدنيا.

وكان يقول: كل مريد لم يذق ذل المكاسب وذل الحاجة إلى الناس لم ينتج في الطريق، أي لأن من لا كسب له يأكل بدينه، ومن لا يتأثر بردّ الناس له إذا سألهم شيئاً فهو عديم المروءة، وكلاهما لا يصلح للطريق، وأيضاً فإن من ذاق ذل المكاسب والحاجة للناس يصير يطلب العز، ولا عز أعظم من عز الفقراء، لإذعان الملوك لهم فضلاً عن غيرهم، فيدخل الطريق بهمة ليكتسب ذلك العز، ويستغني به عن الخلق.

ومن شأنه أن لا يدعي قط أنه صادق في طلب الطريق، ولو اجتمع الناس على صدقه.

وقد سئل الحسين بن منصور الحلاج رحمه الله عن الصدق في الطريق وهو مصلوب على الخشبة مقطع الأطراف، فقال له: يا أخي أهون الصدق ما ترى. وسئل مرة عن الصدق في الطريق، فقال: ماذا أقول لك في الطريق؟ أولها ذبح النفوس، ثم تلا قوله تعالى «فتوبوا إلى بارئكم فاقتلوا أنفسكم».

وكان يقول: رعدة المريد من خوف القطيعة أفضل من عبادة الثقلين ولو وقعت على يديه.

وكان يقول: من شرط المريد الصادق أن يرى نوم غيره أفضل من عبادته. قال: لقد كنا في بدايتنا نصلي الصبح بوضوء العشاء سنين عديدة وإذا اتفق أن أحدنا نام في ليلة، رأيناه أفضلنا.

وكان رضي الله عنه يهجر المريد إذا بلغه عنه أنه مشى خطوة في حظ نفسه، ويقول: إنما ذلك للعوامّ.

ومن شأنه أن يواظب كل يوم وليلة على قول: يا حي يا قيوم لا إله إلا أنت، أربعين مرة، فإنها مجربة لعدم موت القلب، وذلك من أعون الأمور على حياة قلب المريد، وهي من تعليم رسول الله ﷺ لأبي محمد الكتاني لما رأى رسول الله ﷺ في المنام وشكى إليه موت قلبه عن الطاعات، وقد كان يقول: جربتها فوجدت بركتها.

وكان يقول: جلوس المريد في مجالس القيل والقال عقوبة، وقربه من الدنيا معصية، وركونه إلى أبنائها مذلة. قال بعضهم: وربما تكون كلها معاصي.

وكان يقول: المريد المعجب بنفسه مستدرج، والمستحسن لأفعاله الردية ممكور به.

وكان يقول: لو زكيتم مريداً حتى جعلتموه صدِّيقاً وهو يساكن الدنيا بقلبه لا يعبأ الله به، فقيل له: فلو ساكنها بقلبه ينفقها على إخوانه؟ فقال لا يعبأ الله به ولو قصد ذلك فطماً له عن الدنيا، كما تضع الأم للطفل الصبر على ثديها إذا فطمته ليتحكم في ترك الميل إلى اللبن، ويتوجه بكليته إلى الطعام، وكذلك المريد ما لم تنفر نفسه عن الدنيا، ولو بقصد أن يتصدق ويبر بها الناس، لا يفلح في الطريق.

وكان يقول: قال الله تعالى للمريدين في بعض الهواتف الربانية «من صبر علينا وصل إلينا».

وكان يقول: من مَقْتِ الله للمريد أن يُذهب عنه حلاوة ذكره، ويشغل بذلك لسانه من غير حلاوة.

وكان يقول: ذكر المريد بلسانه يورث الدرجات، وذكره لربه بقلبه يورث القربات.

وكان يقول: إذا رأيتم المريد يعظم الفقراء كالأمراء، فلا بد أن يجعله الله تعالى عن قريب إماماً يقتدى به؛ لأن من عظَّم الناس لأجل الله عظمه الله بين الناس، وصاحب العكس بالعكس.

ومن شأنه أن لا يصبر على ذنب، وذلك كأن يقع فيه ولا يتوب عقبه فوراً. وقيل: حدّ الإصرار أن يؤخر التوبة حتى يدخل عليه وقت صلاة من الخمس. هكذا حدّ بعض الأشياخ «الإصرار».

وقد كان الشيخ مظفر القرميسي رحمه الله يقول: ما استغفر مريد من ذنب وهو ملازم له إلا حرم الله تعالى عليه الصدق في التوبة والإنابة. وما ترك مريد حرمة الأشياخ إلا ابتلاه الله تعالى بالدعاوى الكاذبة حتى يفتضح عند الخاص والعام. وكان يقول: لا شيء أضر على المريد من صحبة الأحداث، وإذا كان من يصحب الأحداث على شروط السلامة تنتهي عاقبته إلى البلاء، فكيف بمن يصحبهم وعنده ميل طبيعي إليهم؟ وذلك لأن الشيطان لما رأى أن المريدين لا يتيسر لهم عشرة النساء الأجانب في الزوايا والمساجد أتاهم بالأحداث ومهد لهم بساط صحبتهم محبة لتعليمهم الخير لا غير، فلا يزال إبليس يسارقهم وينقص محبة الخير لهم شيئاً فشيئاً إلى أن يصير المريد يحب الأمرد لغير الله عز وجل.

ومن شأنه أن لا يسكن بقلبه إلى غير ربه عز وجل.

وقد كان الشيخ أبو القاسم الجنيد رضي الله عنه يقول: من سكن من المريدين إلى غير الله عز وجل ابتلاه الله تعالى بالمحن، وحجب ذكره تعالى عن قلبه، وأجراه على لسانه، فإن تنبه ورجع إلى الله عز وجل كشف عنه المحن، وإن دام على السكون إلى غير الله عز وجل نزع الله تعالى الرحمة له من قلوب الخلق وألبسه الله لباس الطمع فيهم، فتراه يزداد مطالبة لهم، وتراهم يزدادون عليه قساوة، وذلك من أشد العذاب عليه.

وكان يقول: إذا أراد الله لمريد خيراً أوقعه في صحبة الصوفية ومنعه من صحبة أهل الغفلة عن الله عز وجل.

وكان يقول: كل مريد عنده دقيق ميل إلى الدنيا أوقفه ذلك عن السير ولو كان شيخه من أكابر الأولياء، فليعمل على إزالة حب الدنيا من قلبه بالكلية.

ومن شأنه النفرة عن كل من يشغله عن الله عز وجل.

فقد كان الشيخ أبو الحسن النوري رحمه الله يقول: كل مريد رأيتموه يخالط غير أبناء حرفته فلا ترجوا له خيراً قط، لأنه متلاعب بالطريق، وكذلك من رأيتموه كثير السماع للقصائد كثير الانغماس بها، فلا ترجوا خيره، لأن الطريق كلها جد. والمراد بالقصائد التغزلات التي يراد بها صفات الخلق.

أما مثل كلام سيدي «عمر بن الفارض» وأضرابه فلا منع منه، بل هو مطلوب لأنه يشوق إلى حضرة الله عز وجل. وإيضاح ذلك أن القوم لما نزّهوا الله عز وجل عن جعله محلاً لتقولاتهم تغزلوا في المخلوقات: من ليلى، ولُبنى، والرباب، والزيانب، وغيرهن، ليأخذ المريد المعنى من ذلك، مع الأدب مع الله تعالى، فإن من أدب الأكابر إذا تعرف الحق إليهم بشيء من الصفات، أن يستروا ذلك عن الأغيار.

وكان أبو الحسن النوري يقول: لكل شيء عقوبة، وعقوبة المريد انقطاعه عن الذكر.

وكان يقول: لا يزال المريد بخير ما أحب مناقشة إخوانه له، فإذا كره ذلك فسد.

وكان يقول: كنت أول دخولي في الطريق ربما أمكث السنة كاملة لا يخطر على قلبي الطعام، أو الشراب، إلا إن حضر.

وكان يقول: ليس العجب من مريد يطلب ربه إنما العجب ممن غفل عنه.

وكان يقول: إذا رأيتم المريد كل قليل يزداد من أمتعة الدنيا في داره فهو من علامة إدباره عن ربه فلا تتعبوا أنفسكم فيه، وذلك كإن دخل في صحبتكم وله امرأة فصار له امرأتان، أو وهو بلا حمار فصار له حمار، أو وهو بلا خادم فصار له خادم، أو وهو بثوب فصار له ثوبان، وقس على ذلك.

وكان يقول: آفة المريد ثلاث: التزويج، وكتابة العلوم التي لا تتعلق بالشريعة، وعشرة الأضداد.

وكان يقول: كل مريد لا يذل في نفسه حتى يكنس بها المزابل، لا يجيء منه شيء في الطريق.

وكان يقول: شربت مرة من ركوة جندي فعادت قساوتها في قلبي ثلاثين سنة.

ومن شأنه أن يكون مقدس الباطن من سائر الذنوب، ومتى لم يكن باطنه مقدساً من العيوب، وأظهر للناس خلاف ذلك، عوقب بحرمان التقديس في المستقبل، وإيضاح ذلك أن

معاصي الباطن لا يهتدي غالب المريدين للقوم عنها، وطاعاتهم ربما لا تفي بالرقي إلى ما أفسدوه بالمعصية، وكأنهم لم يطيعوا ولم يترقوا، إن الرقي لا يكون إلا لمن ترك المعاصي جملة.

وكان أبو بكر الورّاق رحمه الله يقول: من أظهر للناس خلاف ما هو عليه في باطنه ازداد عيوباً إلى عيوبه. وكان يكره للمريد السفر إلى أهله، والسياحات في البلاد، ويقول: مفتاح كل خير التربص في موضع الشيخ حتى يربيه ويفطمه.

وكان يقول: من أكثر من الانتقال من زاوية فيها شيخ إلى زاوية لا يفلح أبداً.

وكان يقول: من علامة صدق المريد، أن تصير الأذكار غذاءه، والتراب فراشه.

وكان يقول: كنت في بداية أمري أكتفي برؤية شيخي من الجمعة إلى الجمعة عن الطعام والشراب.

وكان يقول: من لم تصح مبادىء إرادته فلا بد أن يعطب في نهايته، وذلك بأن يعبد الله في بدايته إجلالاً له وقياماً بواجب حقه عليه لابقصد التقريب من حضرته، فإن ذلك كالعمل بأجرة، وليس ذلك من شأن أهل الله. وهذه الغفلة من أخفى العلل، فإن صاحبها ربما ترقى إلى قريب من الحضرة الإلّهية، فقالوا له: ارجع فلست من أهلها إنما أهلها من لم يُرِدْ إلا الله.

وكان يقول: إذا سكن قلب المريد لترك حضور مجالس الذكر عاقبه الله تعالى بالخزي في الدنيا قبل الآخرة، وكل من قلاها عن حضور مجالس الذكر باللغو مقته الله وأمات قلبه وكشف عورته بين العباد.

وكان يقول: من علامة مقت المريد ذم الدنيا في العلانية ومعانقتها في السر.

وكان يقول: يجب على المريد إذا خمدت نار شوقه للطريق أن يجتمع بمن يهيج شوقه، وإلا ابتلاه الله تعالى بالجذام والبرص.

وكان يقول: إذا أكل شيئاً بِشَرَهِ نَفْسٍ أعمى الله عين بصيرته.

وكان بشر الحافي رحمه الله يقول: لا تقدموا على حذف العلائق شيئاً فإني لو أجبت نفسي إلى كل ما طلبت مني من الشهوات لخشيت أن أعمل شرطياً، أو مكاساً. وإيضاح ذلك أن كل علاقة علقت بالمريد ردته إلى وراء، فلا يزال المريد الصادق يحذف العلائق شيئاً بعد شيء إلى أن لا يصير له علاقة تمنعه من دخول حضرة الله عز وجل.

وكان يقول: غنيمة المريد في هذا الزمان غفلة الناس عنه، فإن لقاء المريد للناس

خُسران.

وكان يقول: كل مريد سمعتموه يقول: بأي شيء آكل رغيفي؟ فهو بطال لا يجيء منه شيء في الطريق.

ومن شأنه أن لا يتساهل بالأكل من طعام من يغش في معاملته، أو يأكل بدينه.

فقد كان السري السقطي رحمه الله يقول: كيف يستنير قلب المريد وهو يأكل من كل شيء وجده لا يسأل عنه!

وكان يقول: ما رأيت أسرع من مقت المريد وإحباط عمله من نظره في عيوب الناس، وإطلاق لسانه فيهم بالغيبة والاستهزاء بهم.

وكان يقول: إذا أنس المريد بربه في الظلام، نشر له يوم القيامة الأعلام.

وكان يقول: قد توعرت الطريق في زماننا هذا على أكثر المريدين، فقنعوا باسم الإرادة، ولم يطالبوا أنفسهم بمكانها، ففارقوا السهر وافترشوا الرخص، ومهدوا لأنفسهم التأويلات، فلا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم.

وكان شقيق البلخي رحمه الله يقول: مثل المريد الصادق مثل رجل غرس نخلاً، وهو يخاف أن تطرح شوكاً، ومثل المريد الكاذب مثل رجل غرس شوكاً، وهو يطلب أن يحمل له رطباً.

وكان يقول: من طلب أن يكون من أهل الرئاسة فليؤثر الناس على نفسه، ويتحمل أذاهم، ومن طلب الرئاسة بغير هذين الطريقين، فقد خاب سعيه.

وكان سهل بن عبدالله التستري رحمه الله يقول: ما عمل مريد بما أمره الله تعالى عند فساد الزمان إلا جعله الله إماماً يُقتدى به.

وكان يقول: من علامة المريد الصادق انفراده عن الناس حتى لا يكاد يوجد في مجلس لغو.

وكان يقول: لا ينبغي للمريد أن يسعى في نظافة ثيابه وينسى نظافة قلبه، وكانوا إذا قالوا له: إن ثوبك قد اتسخ، يقول لهم: ليت قلبي في القلوب مثل ثوبي في الثياب.

وكان يقول: ما ترك مريد الذكر إلا مات قلبه.

وكان يقول: لا يزال قلب المريد متمزقاً ما دام بحب الدنيا متعلقاً.

وكان يقول: إذا لم يقدر المريد على التوبة النصوح فليسأل ربه المغفرة من باب المنة والفضل.

وكان يقول: عليكم أيها المريدون بمجالسة الذاكرين، فإنهم ملازمون باب الملك.

وفي بعض الهواتف الربانية: من لم يرني فليلزم اسمي فإن اسمي لا يفارقني.

وكان أحمد بن أبي الحواري رحمه الله يقول: كل مريد لا يكون فيه ثلاث خصال فهو كاذب، وهي: ترك المال، والطعام، والمقام، فلا يأخذ من كل واحد إلا بقدر الضرورة الشرعية، وهناك يصلح لمجالسة الحق تعالى في ذكره، فما كل ذاكر جالس.

وكان يقول: الدنيا مزبلة والمزبلة مأوى الكلاب، فمن أرادها فليصبر على عضّ كلابها، وربما كان المحب للدنيا أسوأ حالاً من كلابها، فإن الكلب يأخذ حاجته منها في بطنه ويترك الباقي، ومحب الدنيا يحمله.

وكان يقول: ينبغي للمريد كتم أعماله ما استطاع حتى يقوى نور قلبه، فإن حكم من يظهر عمله من المريدين، حكم من أخذ نور قلبه فجعله من خارجه، ولولا اقتداء الناس بالأشياخ ما ساغ للأشياخ إظهار شيء من أعمالهم.

وكان يقول: ما ظهر شيء من محاسن عمل مريد إلا من غفلة طرأت عليه، لأنه ليس من أهل الاقتداء به.

وكان يقول: أعظم أخلاق المريدين حفظ حرمات الإخوان، وحسن العشرة معهم، ومجانبة الادّخار للثياب، والطعام، والدراهم.

وكان يقول: إذا رأيتم ضوء المريد في ثوب فلا ترجوا خيره.

جواسيس القلوب

وكان يقول: احذر أيها المريد أن تجالس أحداً من الفقراء بغير أدب، فإن الفقراء جواسيس القلوب، وربما دخلوا في قلبك وخرجوا فعرفوا ما فيه، وأنت لا تعلم.

ومن شأنه أن يكون خصماً لنفسه ما أمكن.

وقد كان الشيخ أبو المواهب الشاذلي رحمه الله يقول: من أراد أن يهجر أحداً من إخوان السوء فليبدأ بنفسه، وليهجر أخلاقها السيئة، فإن نفسه أقرب الأقربين إليه، والأقربون أولى بالمعروف.

وكان يقول: من علامة رياء المريد أن يجيب عن نفسه إذا قيل له: يا مرائي، أو يا معجباً بعمله، أو يا متكبر، ونحو ذلك، وإنما جاز مثل ذلك للأشياخ لأنهم متبوعون، فيخافون من تغيير قلوب مريديهم فلا يعتقدون فيهم، فيحرمون بركة صحبتهم.

وكان يقول: من طلب من المريدين الشهرة بالصلاح بين الناس لزمه الرياء لأجلهم، والكراهة لهم بغير حق، والوقوع فيما يسخط ربه.

وكان يقول: إياك أيها المريد أن تطلب دخول حضرة ربك في ذكرك وصلاتك وعندك بقية نفس، فإن الملك القدوس قد حكم وقضى أن لا يدخل حضرته أحداً من أهل النفوس.

وكان يقول: أول عائق يعرض للمريد اعتماده على أعماله، وذلك من غلبة وهمه على وجوده وتراكم الخيال في مرآة عقله، ولا يخرج مريد عن ذلك إلا بنور الكشف بأن الله تعالى خالق لعمله وحده، وليس له منه إلا نسبة التكليف.

وسمعت سيدي علي الخواص رحمه الله يقول: لا يبلغ أحد مقام الإخلاص في الأعمال حتى يصير يعرف ما وراء الجدار، وينظر ما يفعله الناس في قعور بيوتهم في بلاد أُخر، فهناك يعرف يقيناً بنور هذا الكشف، أن عمله ليس هو له، إنما هو محل لبروزه من جوارحه حيث كانت الأعراض لا تظهر إلا في جسم، والأعمال أعراض فافهم.

وكان يقول: من علامة صدق المريد في ترك الدنيا أن يتعسر عليه أسبابها أبداً ما عاش، وذلك لقوة همته في دفعها، فلا يصبح ويمسي إلا فقيراً إلى ربه عز وجل.

وكان يقول: إذا فتح الله تعالى على المريد فتح التعرف فلا يبالي بعد ذلك قل العمل أو كثر.

وكان يقول: لما علم أهل الله تعالى أن كل نبات لا ينبت ولا يثمر إلا بجعله تحت الأرض تعلوه النعال جعلوا نفوسهم تحت النعال لينبتوا ويثمروا فلا يظهرون للناس إلا بعد تمكنهم في محبة الحق.

وكان يقول: إذا ورد عليك أيها المريد وارد في ذكر أو غيره فاقبله من الحق تعالى ولا تتعشق به فتحجب عن ربك وتقف عن الترقي.

وكان يقول: احفظ وردك أيها المريد عن النسيان فربما احتجت إليه إذا بلغت مبلغ الرجال وربيت المريدين، وقد زهد في ذلك بعض الأشياخ فاحتاجوا إليه حال تربيتهم، فلم يعرفوا كيف التربية.

وكان يقول: من المحال أن ينفتح لقلب المريد باب الملكوت وفيه ميل لشهوة من الشهوات.

وكان يقول: إن لم يدخل نور الكشف القلوب حتى تحرق جميع الشهوات، وإلا فالقلب محجوب عن الله تعالى، فإذا أحرق الشهوات فهناك تنكشف للقلب المغيبات، ويصير يبصر ما مضى وما هو آت مما هو من مقامه، وتأمل المرآة لما خلت من الأكوان كيف انطبع فيها جميع الأكوان، ولو كان لها لون لحجب عن رؤية الصور فيها، وكذلك المرآة إذا قوبلت لا يظهر لأحد بها صورة في الأخرى.

وكان يقول: الفتح على المريد تارة يكون امتحاناً، وتارة يكون تثبيتاً. فليبحث المريد عن تمييز ذلك.

أخوة الطريق

وكان يقول: ليس للمريد أن يؤاخي أحداً ادعى أنه يحبه إلا بعد أن يمتحنه في مقاسمته في ماله وعياله، كما فعل المهاجرون، فمن ثبت لذلك اتخذه أخاً، وذلك أندر من النادر.

وكان يقول: عليك أيها المريد بتكثير سواد القوم حسب استطاعتك، ولو قال لك إبليس بعيد أن مثلك يفتح عليه، فلا تسمع منه، فإن من كثر سواد قوم فهو منهم، ولا تخرج عن ذلك إلا بجعل أعمالك كلها مقاصد لا وسائل لأمر آخر، فإن من جعل أعماله وسائل ربما انخدع لإبليس.

أولياء الله أحياء في قبورهم

وكان يقول: من أدب المريد إذا زار شيخاً في قبره أن لا يعتقد أنه ميت لا يسمعه، بل الأدب أن يعتقد «حياته البرزخيّة»(١) لينال بركته، فإن العبد إذا زار ولياً وذكر الله عند قبره، فلا بد أن ذلك الولي يجلس في قبره ويذكر الله معه، كما شهدنا ذلك مراراً مع الإمام الشافعي، ومع ذي النون المصري، ومع جماعة من مشايخ القرافة، فإن لم يشهد ذلك فأقل مراتبه الإيمان بحياتهم المذكورة.

وكان يقول: لا ينبغي لمريد أن يجالس من ينظر محاسن نفسه وكمالها وينكر على القوم، فإن ذلك من أكبر القواطع على المريد.

---

(١) البرزخ هو نهاية الدنيا وبداية الآخرة.

وكان كثيراً ما يقول في مجلسه: قولوا معي: لعنة الله على من ينكر على أوليائه، فيقول الجماعة كلهم: لعنة الله عليه، ويرفعون بذلك أصواتهم حتى تصير لهم ضجة، وكان يقول: ما يوقف المريد عن الترقي إلا وقوعه في غيبة أحد من المسلمين، ومن ابتلي بوقوعه في ذلك، فليقرأ الفاتحة وسورة الإخلاص والمعوذتين، ويهدي ثوابها في صحائف ذلك الشخص، فإني رأيت رسول الله ﷺ في المنام وأخبرني بذلك. وقال: إن الغيبة والثواب يقفان بين يدي الله عز وجل يوم القيامة ونرجو أن يكون ذلك بذلك.

وكان يقول: احذروا أيها المريدون من إشاعة زلة رأيتموها من أخيكم احتقاراً له، فربما كانت تلك الزلّة التي وقعت منه إنما قدّرها الله تعالى عليه لِيَسُدَّ ثُلمة[1] حدثت في دينه من عُجب أو كبر، فيكون بها كماله من حيث أثرها، ويؤيد ذلك قول صاحب الحكم: معصية أورثت ذلّاً وانكساراً، خير من طاعة أورثت عزاً واستكباراً.

وكان الشيخ أبو المواهب يقول: من قرأ فقه الأئمة بلا أدب أظلم قلبه، كما وقع لي ذلك، فقيل له: وما أدب قراءة كلام الأئمة؟ فقال: التسليم لأقوالهم، وعدم التعصب لمذهب دون آخر، فإن الأئمة أعلم من أمثالنا بيقين، فما له وللرد على من لا يصلح أن يكون من طلبته؟

وكان يقول: تسليم المريد للعلماء أسلم، والاعتقاد فيهم أغنم.

وكان يقول: عبادة المريد مع محبته للدنيا شغل قلب وتعب جوارح، فهي وإن كثرت قليلة عند الله تعالى، وإنما هي كثيرة في وهم صاحبها فقط، وهي أشباح خالية من الأرواح، ولهذا ترى كثيراً من أبناء الدنيا يقومون الليل كثيراً ويقرأ أحدهم كل يوم ختماً، وليس لهم مع ذلك نور الزُّهاد، ولا حلاوة العباد، فإذا كان كثرة العبادة مع محبة الدنيا لا ترقّي صاحبها، فكيف بمحبة الدنيا مع قلة العمل وارتكاب شيء من المعاصي؟

وكان يقول: أعلى مجاهدات المريد الزهد في الجاه الذي حصل من نتائج الطاعات، أي آخر مجاهداته.

أفضل أوراد المريد

وكان يقول: أفضل أوراد المريد الذكر، لأن الصلاة وإن كانت عظيمة، فقد لا تجوز في بعض الأوقات التي يجوز فيها الذكر، بخلاف ذكر الله عز وجل لا يُمنع منه في حالة من الأحوال.

---

(١) فجوة.

وكان يقول: الذي عندي أن أفضل صيغ ذكر المريد قول «لا إله إلا الله» ما دام له هوى، فإن فنيت أهويته كلها كان ذكر الجلالة أنفع له.

وكان يقول: من حرم الأوراد في بدايته، حرم الواردات فيّ نهايته، فعليك أيها المريد بالأوراد ولو بلغت المراد.

وكان يقول: إذا أنكر المريد على أرقى منه وجود ما لم يجد هو من الأسرار حرم الوصول إليه وحرم بركة ما وجد، فإن من كان كثير النكير، فهو فاقد للتنوير.

وكان يقول: المريد البرّ هو من لا يظهر الذر.

وكان يقول: احذر أيها المريد أن تكون ممن يعبدُ ليعبَد أو ممن يسوِّد الجباه للجاه، فإن ذلك من مقت الله.

وكان يقول: إياك أيها المريد أن تجادل أصحاب الضروس بما تجده في نفسك من الأمور الذوقيات، فربما شنوا عليك الغارات، ولم يرجعوا عما هم عليه، وربما سبوا الطريق وأهلها.

وكان يقول: ما نكس الرؤوس إلا اتباع شهوات النفوس.

وكان يقول: إذا قنع المريد بتعظيم أهل الغفلات له، حرم الوصول إلى مقام أهل الاختصاص.

وكان يقول: من كان للخلق مُرْضٍ فهو لربه أرضى، ومن كان على إخوانه يتعالى فلا يقال له تعال.

وكان يقول: المريد الصادق لا يَزور ولا يُزار، وربَّ امرىء يزار حمّله الزائر الأوزار، فالحاذق يفتش نفسه عند قدوم كل زائر.

ومن شأنه أن لا يتصدر قط لإزالة منكر في حارته مثلاً، فإن ذلك من أكبر القواطع عليه، إلا بعد تعلّم[1] السياسة التامة، والنية الصالحة، وتعين ذلك عليه. وقد بلغنا أن جماعة من الشباب، كانوا يعبدون الله تعالى، ويأكلون من عمل يدهم، فكان إبليس كلما أراد أن يقترب من أحدهم كاد أن يحترق، فبينما هم يوماً في مجلس الذكر، إذ حرش جماعة من العياق[2] كانوا بالقرب من هؤلاء الذاكرين، فوقعوا في ضرب بعضهم بعضاً بالعصي حتى جرت منهم

---

(١) يشير بذلك إلى الآية الكريمة «ادع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة».

(٢) جمع عايق والمراد «جماعة من الفتوات».

الدماء، وكان قصده أن هؤلاء الذاكرين يقولون في أنفسهم: إن تخليصنا هؤلاء أفضل مما نحن فيه، لأنه خير متعدي النفع فتركوا مجلس الذكر وجاءوا يخلصون بينهم، فوقع العياق فيهم بالضرب فاشتغلوا بهم عن الذكر وعن غيره ففرح بذلك إبليس، وكان جلُّ قصده إبطال مجلس الذكر لا غير، فلا يليق التصدر لإزالة المنكرات، إلا للأشياخ الذين لهم حال يحميهم من أهل المنكر ومن إبليس.

وكان يقول: إن كان ولا بد للمريد من إزالة المنكر فليتوجه إلى الله تعالى بقلبه ويزيل ذلك المنكر الذي رآه، إما يمنع الزاني من الزنا، أو يمنع الشارب من شرب الخمر، ونحو ذلك، ولا ينسب إلى ساكت قول. هكذا كان صورة تغيير المريدين الصادقين المنكر في قديم الزمان وقد خالف قوم فغيروا بيدهم أو لسانهم فسحبوهم لبيت الوالي وضربوهم وحبسوهم فازداد المنكر منكراً.

وقد كان سيدي إبراهيم المتبولي رحمه الله يقول: تغيير المنكر باليد للولاة ومن قاربهم، وتغييره بالقول للعلماء العاملين، وتغييره بالقلب لأرباب القول.

وكان رضي الله عنه يقول: من شرط المريد الصادق أن يرى نفسه دائماً في مقام الطفولية، ليرضع من ثدي المربِّي، فإن من كبر استحق الفطام، ومنعوه الرضاع.

وكان كثيراً ما يقول لمن يراه متكبراً عن سماع النصح: يا ولدي لا تَكْبُرْ تُفْطَمْ.

وكان يقول: لا يجري ماء الإيمان في قلب مريد إلا إن نظُف قلبه من محبة الدنيا وشهواتها.

وكان يقول: من سلك من المريدين بالرياضة على طريق أصحاب علم الحرف مقت وانكشف حاله، وذهبت دنياه وآخرته، لأنه استعمل أسماء الله تعالى في طلب أشياء خسيسة، من مالٍ أو جاه.

وكان يقول: كل مريد أكل من طعام مكّاسٍ، أو جندي، أو قاض يأخذ الرشوة في الأحكام، أو مباشر يتهور في كسبه، أو شيخ عرب، أو كاشف، أو والي، أو غيرهم من سائر المتهورين في مكاسبهم فقد تورّع من فتحه في الطريق.

وقد أكل بعض المريدين لقمة من طعام قاض ثم تذكر فترك الأكل فأظلم قلبه ثلاثين جنمة، ثم قيل له: بعد مجاهدة ثلاثين سنة الآن قد رجعت إلى حالتك التي كانت قبل أن تأكل من طعام القاضي المرتشي! وفي هذا القدر كفاية.

فاعرض يا أخي جميع ما ذكرته لك في هذا الباب من صفات المريدين على نفسك فإن رأيتها متخلقة به فأنت مريد صادق، وإلا فكف عن الدعوى، والحمد لله رب العالمين.

فهرس المحتويات